

أحاديث من القلب

سبعة أرواح اللّـــه

بقلم : فخرى كرم

سبعة أرواح اللَّه

(١)

«نعمة لكم وسلام من الكائن والذى كان والذى يأتى ومن السبعة الأرواح التى أمام عرشه» (رؤ ١:٤)

ما أبعد الفرق بين الواقع في أرض الإنسان وبين الحقيقة الماثلة أمام اللَّه، إن أصغر الأشياء في أرض الإنسان يمكن أن تتضخم وتملأ قلبه وعقله ولا تترك فيهما مكاناً لأى شىء آخر، وأقل الاختبارات الروحية كافية لأن تملأ روح الإنسان تيهاً وغروراً وتُغلق عليه كل المنافذ لقبول المزيد، ولذلك يظل الإنسان عاجزاً عن قبول أمور اللَّه في عمقها واتساعها، ويبقى العالم الروحى بعيداً يكتنفه الغموض، كبيراً جداً لا يصل منه للإنسان إلا أقل القليل، عميقاً جداً لا يستوعب الإنسان منه إلا كل ما هو سطحى وضحل.

ومحاولة أن تنقل الحقائق الروحية كما هى في عالم الروح إلى ذهن وقلب الإنسان هى محاولة المستحيل نفسه!! لأن الإنسان لا يقبل إلا ما يفهمه، وهو لا يفهم إلا ما يراه، وهو لا يرى إلا عالمه المادى المحسوس.

الصور الرمزية

لذلك يستخدم الوحى رموزاً وصوراً مجازية عندما يريد أن يخترق ذهن الإنسان لينقل له فكرة عن العالم الروحى، لعله إذا قبل الرمز تتكون لديه الرغبة لمعرفة الحقيقة الكامنة وراء هذا الرمز بكل اتساعها ومجدها.

لكن ينبغى ألا تنسى أن الحقائق الروحية كما هى في السماويات لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تتجسد في صورة رمزية، ولا توجد هيئة جسمية يمكن أن تحتوى كل اتساع ومجد الحقيقة الروحية، إن الرمز يخاطب الذهن ليقرِّب إليه فهم الحقيقة أما الحقيقة نفسها فستظل منتظرة روحاً مشتاقة تدخل إلى عالم الروحيات وتعيش فيه كل يوم، إن فهم الرمز يفتح الباب للدخول إلى الحقيقة الاختبارية ولكنه لا يغنى عنها أبداً، إن الرمز صورة ذهنية أما الحقيقة فحياة اختبارية.

لكن المأساة هى أن يشبع الذهن بفهم الرمز وتأمله فيه، ويعتقد أنه بفهمه للرمز يكون قد فهم الحقيقة، وبتأمله في الرمز يكون قد اختبر الحياة!! وهكذا يُغلق عليه في سجن ضيق من الصور الذهنية والتعاليم الجوفاء بينما العالم الروحى الحقيقى يظل رحيباً فيما وراء هذا السجن ينتظر مَنْ يلجه.

مثلاً عندما يحاول الوحى أن يصوِّر لنا العمل الكفارى للرب يسوع لا يستطيع أن ينقل لنا عمق ومجد هذا العمل كما هو في السماويات لأن الإنسان لا يستطيع أن يفهمه أو يقبله، لذلك نجد الوحى يرسم أمامنا مراراً وتكراراً صورة الحمل المذبوح، على فم إشعياء قال عنه شاة تُساق إلى الذبح، وعلى فم المعمدان قال إنه حمل اللّه الذى يرفع خطية العالم، وأخيراً رآه يوحنا الرائى خروفاً قائماً كأنه مذبوح!! إن هذه الصورة الرمزية يُقصَد بها مخاطبة الذهن البشرى فقط أما حقيقة الفادى ـ تبارك اسمه ـ وعظمة عمله فستظل أكبر بكثير مما تعبِّر عنه هذه الصورة الرمزية المحدودة، إن كل المقصود هو أن يقبل الإنسان فكرة الفداء لعل هذا يفتح أمام روحه باباً للاقتراب من شخص الفادى واختبار عمل الفداء في عمقه كما هو في السماويات، أما مَنْ يقف عند حدود القبول الذهنى للرمز ويظن أن تأمله في الصورة يغنيه عن اختبار الحقيقة فهو واهم، ومَنْ يظن أنه سيجد في السماء عرشاً يجلس عليه خروف مذبوح فهو ساذج!! فالرب له المجد لم يكن يوماً خروفاً ولن يكون، وليس الاضطرار لاستخدام هذه الصورة الرمزية إلا لقصور الذهن البشرى واحتياجه لصورة مألوفة لديه.

لنضع في أذهاننا إذن ـ ونحن في بداية هذه السلسلة الجديدة من المقالات أن كل رمز موجود في الكتاب هو صورة ذهنية تخفى وراءها حقائق روحية اختبارية مذهلة، وليس المقصود من الصورة إلا تحريك الرغبة داخلك للدخول إلى عمق الحقائق الاختبارية الكامنة وراءها.

سبعة أرواح اللّه

وروح اللّه المبارك من أعظم الحقائق الروحية التى تملأ هذا الكون وتتحرك داخله في حركة دائبة وعمل دائم. بدءاً من أعماق اللّه نفسه وحتى أعماق الإنسان المائت، من بداية الخليقة والأرض الخربة وحتى السماء والأرض الجديدتين، متعدد الأعمال وعظيم القدرة، في قلبه لنا نعمة وسلام عظيمان!!

وبسبب محدودية أذهاننا نجد الوحى يستخدم في مواضع عديدة رموزاً وصوراً جسمية للإشارة إلى الروح القدس، فهو تارة حمامة وأخرى نار وثالثة مياه جارية ورابعة رياح... إلخ، وذلك في محاولة للتعبير عن تنوع طبيعة أعماله في المواضع المختلفة، ولذلك نراه في سفر الرؤيا باعتباره «سبعة أرواح اللّه» إشارة لتعدد أعماله وكمالها في آنٍ واحد، وسنحاول أن نقترب بخشوع من أعتاب هذا الروح المبارك لنرى مجد وتنوع وكمال عمله لأجلنا وما يملأ قلبه من نحونا، آمين (يتبـــع).

(٢)

أول صفة تصادفنا لسبعة أرواح اللّه هى «التى أمام عرش اللّه»، وغنى عن البيان أن العالم الروحى ليس فيه عروش مادية لها أبعاد محددة، فالسماء كلها هى كرسى اللّه كما قال الرب (مت ٥ :٣٤) وبالتالى فالسماء ليس فيها «أمام» و «خلف»، أى أن تعبير «أمام العرش» هو أحد الصور الرمزية التى تحدثنا عنها في العدد الماضى، والمقصود منها هو تقريب معنى روحى كبير إلى أذهاننا الصغيرة.

وما المعنى الكامن وراء كون الروح المبارك «أمام العرش»؟ إن وجوده «أمام» العرش يعنى أن كل ما يخرج من العرش لابد أن يمر من خلاله، وأيضاً كل ما يرجع إلى العرش لابد أن يمر من خلاله، أو بتعبير آخر نقول إن الروح هو حامل مشيئة اللّه إلى كل الخليقة وهو أيضاً حامل مشيئة كل الخليقة إلى اللّه.

حامل مشيئة اللّه..

الروح القدس يهتم بأن يعرف مشيئة اللّه ويهتم بأن يتممها في كل الخليقة، إنه يفحص أعماق اللّه ويعرف ما يريده ثم يذهب إلى كل الأرض ليتممه، وهو بذلك يشبه عمل «النور»، ولذلك قيل عنه «وأمام العرش سبعة مصابيح نار متقدة هى سبعة أرواح اللّه» (رؤ ٤ :٥) إن نور مشيئة اللّه يشع من خلال الروح إلى كل موضع في هذه الخليقة، ولهذا قال عنه الرب «يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به» (يو ١٦ :١٣) إنه موجود دائماً أمام العرش لكى كل ما يسمعه من حق في مشيئة اللّه ينقله إلينا، له كل المجد!!

.. وحامل مشيئة الخليقة

ومن الناحية الأخرى هو حامل أعماق الخليقة، تجده دائماً يرفُّ على كل مواضع الخراب فيها، بل هو يعرف أعماقنا أكثر مما نعرفها نحن، حتى إنه عندما يجدنا عاجزين عن التعبير عن أعماقنا بصورة صحيحة يتولى بنفسه مهمة حمل هذه الأعماق والقدوم بها إلى اللّه (رو ٨ :٢٦)!! وهو من هذا الجانب يقوم بعمل «العين»، ولذلك قيل عنه أيضاً «سبعة أعين هى سبعة أرواح اللّه المرسلة إلى كل الأرض» (رؤ ٥ :٦).

النور يرسل والعين تستقبل، النور يحمل مشيئة اللّه الصالحة لكل الخليقة والعين ترصد كل ما في الخليقة وتقدمه إلى اللّه، إنه من الناحية الواحدة يأتى بمحبة اللّه وتشجيعه إلى قلوبنا ومن الناحية الأخرى يأخذ ضعف قلوبنا ويشفع فيه أمام اللّه، إنه يزرع في قلوبنا محبة اللّه ويأخذ مردود هذه المحبة ويقدمه إلى اللّه، لا توجد مشيئة في قلب اللّه إلا والروح هو حاملها ومتممها، ولا يوجد مجد للّه في الخليقة إلا والروح هو صانعه ومقدمه إلى اللّه!!

امتحنوا الأرواح

وعلى العكس من روح اللّه المنير بمشيئة اللّه توجد أرواح كثيرة معتمة تحمل إرادتها الذاتية وتسعى لتنفيذها، أرواح كثيرة تدور في فلك إرادتها الخاصة ولا توجد «أمام عرش اللّه»، أى إنها لا تعرف مشيئة اللّه ولا تحاول أن تعرفها ولا تحب أن تتممها، إنها الأرواح الساقطة المحكوم عليها بقتام الظلام إلى الأبد لأنها اختارت أن تعيش في الظلام، ظلام المشيئة الذاتية بعيداً عن نور مشيئة اللّه، إنها مملكة إبليس وجنوده.

وفي أرض الإنسان أيضاً توجد الأرواح الإنسانية المظلمة، عندما يبتعد الإنسان بإرادته عن إرادة اللّه تتحول روحه إلى روح مظلمة ساقطة، لا تستطيع أن تقترب من أمام عرش اللّه ولا تريد أن تقترب!!

وفي وسط هذا الظلام الحالك يبقى روح اللّه المبارك هو مصدر النور الوحيد في هذه الخليقة. إنه الوحيد الذى يمثل دائماً «أمام» عرش اللّه ليحمل مشيئته ويتممها، له كل المجد!!

هل تريد أن تميز الأرواح؟ هل تحب أن تعرف ما إذا كنت تتعامل مع روح اللّه أم مع روح آخر؟ إذا كنت تتعامل مع روح اللّه فلابد أن يقودك دائماً إلى «أمام عرش اللّه»!! سيعلّمك كيف تحب وتمتلىء من مشيئة اللّه، سيشملك بالرغبة في تتميم هذه المشيئة ولو على حساب مشيئتك الذاتية!! سيعلّمك كيف تقبل مشيئة اللّه وتتممها وكيف تقدم نفسك للّه ذبيحة حية مقدسة، سيعلّمك كيف تأخذ وكيف تعطى أمام عرش اللّه!! أما أى روح يملؤك بذاتك ويجعلك تدور في فلك نفسك ولا يملؤك حباً لمشيئة اللّه فهو روح ضلال مهما اكتسى بأثواب براقة!!

ليتك تكتنفنى يا روح اللّه، خذ بيدى وعلّمنى كيف أبقى دائماً أمام عرش اللّه، ليتك تُنير روحى بنور مشيئته الصالحة، وتعيننى لكى أتممها في حياتى، وعلّمنى كيف أقدم له المجد اللائق بجلاله، آمين (يتبع).

(٣)

مشيئة اللّه ثابتة وواحدة دائماً في جوهرها الذى هو الحق والعدل والصلاح، ولكن إعلان هذه المشيئة في أرض الإنسان يختلف كثيراً من وقت إلى وقت ومن إنسان إلى آخر بحسب الاحتياج المتغير للإنسان وقدرته على الاستيعاب، ولأن الروح هو المكلَّف بإعلان مشيئة اللّه للإنسان لذلك نراه يقترب من الإنسان بأشكال وأساليب متعددة ومختلفة حتى تحسبه أرواحاً متعددة، ولهذا دعاه الكتاب «سبعة أرواح اللّه». ولنأخذ مثلاً عن اختلاف تعاملات الروح في الأوقات المختلفة من تاريخ شعب اللّه:

عندما كان الشعب مستعبداً مقهوراً في مصر تحرك قلب اللّه بالشفقة على الشعب والرغبة في خلاصه، فقام الروح باختيار الإناء الإنسانى المناسب وأعدَّه لإتمام هذه المشيئة كما هى في السماء كذلك على الأرض، وعندما اكتنف الروح موسى ملأه بالشفقة والمحبة للشعب مما دفعه لرفض كل خزائن مصر لكى يلتصق بهذا الشعب المهان، وملأه بروح حلم واحتمال يفوق قدرة الإنسان لكى يستطيع أن يحتمل شعباً كثير التمرد والعصيان، ولقد استطاع الروح المبارك من خلال قيادته لهذا الإناء الإنسانى أن يتمم مشيئة اللّه في أرض الواقع، وأعلن للشعب كيف إن اللّه مهتم بهم ومحتمل لضعفاتهم وغافر لأخطائهم.

ولكن إذا انتقلنا إلى وقت آخر من تاريخ شعب اللّه، في أيام آخاب الملك، نجد الشعب مرتداً، ناسياً لإلهه، عابداً للبعل!! وفي هذا الوقت كان قلب اللّه يموج بالغضب والقضاء، ومرة أخرى نجد الروح يحمل هذه المشيئة ويبحث عن إناء إنسانى يستطيع من خلاله أن يتمم هذه المشيئة في أرض الواقع، ولقد وجد إيليا التشبى وأعدَّه إعداداً خاصاً، وعندما اكتنف الروح إيليا وجدناه يمتلىء غضباً وسخطاً على ضلال الشعب، وامتلأت كلماته بالقضاء والوعيد، واصطبغ طريقه في وسط الشعب بالنار والدم!!

إن روح الحلم والاحتمال التى ظهرت في موسى تختلف كل الاختلاف عن روح القضاء والدينونة التى تجلَّت في إيليا، حتى إن النظرة السطحية لا تستطيع أن تصدق أنهما من عمل روح واحد إلا عندما تراهما جنباً إلى جنب على جبل التجلى تظللهما سحابة واحدة!!

لكن الاختلاف في معاملات الروح لا يكون فقط من وقت إلى آخر بل..

من إناء إلى إناء!!

كان يوحنا المعمدان معاصراً للمسيح ومع ذلك كان هناك اختلاف كبير بين الروح التى تجلّت في كل منهما ، فبينما رأينا يوحنا ينعزل عن الشعب ويختلف عنهم في كل شيء حتى في المأكل والملبس، وجدنا الرب يقترب جداً منهم ويترفق بهم ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم، أو بحسب تعبير الرب «جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب... وجاء ابن الإنسان يأكل ويشرب» (مت ١١:١٨).

إن روح الانعزال والقضاء التى ظهرت في يوحنا تختلف تماماً ـ في مظهرها ـ عن روح المحبة والغفران التى تجلت في المسيح، حتى إن كثيرين ـ ومنهم يوحنا نفسه ـ كادوا يعثرون في هذا الاختلاف (لو ٥:٣٣ ، ٧:١٩)، ولكن الحقيقة أن كلا منهما كان من عمل الروح الواحد، وكلا منهما كان يتمم المشيئة المعلنة له ويصطبغ بالصبغة المحددة له، والإناء الصالح هو الذى يقبل المشيئة المعلنة له ويميز أسلوب الروح في التعامل معه مهما اختلف في مظهره عن أسلوب الروح في التعامل مع الآخرين.

من أى روح نحن ؟!

لعل الموقف الوارد في (لو ٩:٥١ ـ ٥٦) يلقى مزيداً من الضوء على موضوعنا هذا. عندما طلب ابنا زبدى أن تنزل نار من السماء لتفنى قرية السامريين كانا يطلبان شيئاً فعله إيليا من قبل، لم يكن الطلب إذاً خاطئاً في حد ذاته، لكن الخطأ كان في محاولة تقمص روح إيليا بينما الروح الذى يمتلىء به سيدهم في هذا الوقت كان مختلفاً تماماً عن روح إيليا ، كان الخطأ أنهم لم يميزوا الروح الذى يصبغ هذه المرحلة من خدمة سيدهم، أو بحسب تعبير الرب «لستما تعلمان من أى روح أنتما ، لأن ابن الإنسان لم يأتِ ليهلك أنفس الناس بل ليخلِّص»، كان ينبغى أن يصطبغا بالصبغة التى يصطبغ بها الرب، وليس بالصبغة التى اصطبغ بها إيليا (مت ٢٠:٢٢) كانت روح إيليا مناسبة في خدمته أما في خدمة الرب فلم يكن لها مكان البتة!!

كم نحتاج أن نميز من أى روح نحن!! إن الروح يحمل مشيئة خاصة بك وبكنيستك وببلدك، لا تحاول أن تقلّد أحداً أو تستحضر روحاً امتلأ به شخص آخر أو تصطبغ بصبغة خادم غيرك، اسعَ لكى تعرف أى روح يريد اللّه أن يملأك به وأية صبغة يريد أن يصبغ بها خدمتك، واعلم أن أية محاولة لتحديد شكل ثابت لمعاملات الروح هى محاولة فاشلة، فالروح كان وسيظل حراً في أن يتعامل مع الإنسان بأنواع وطرق كثيرة.. وللحديث بقية.

قلنا إن روح اللّٰه المبارك يحمل مشيئة اللّٰه الكاملة وينقلها إلى أرض الإنسان بأنواع وطرق كثيرة، تختلف من وقت إلى آخر بل ومن إناء إلى إناء في نفس الوقت، وذلك بسبب تعدد وجوه المشيئة الإلهية وأيضاً بسبب قصور الإناء الإنسانى في معظم الأحيان عن استيعاب وحمل أكثر من وجه واحد لهذه المشيئة، إلا أن هناك إناء إنسانياً واحداً استطاع أن يستوعب ويحمل كل مشيئة اللّٰه وينقلها إلى أرض الإنسان، ورغم كونه إناء إنسانياً بكل ما تحمله الكلمة من معنى إلا أنه استطاع أن يقدم نفسه لتكون موطئاً لقدم الروح المبارك بكل ما يحمله من مشيئة إلهية، فصارت حياته أرضاً لسبعة أرواح اللّٰه جميعاً، حتى استحق أن يأخذ هذا الاسم الذى هو فوق كل اسم:

«الذى له سبعة أرواح اللّٰه» !!

إنه «يسوع» المولود من امرأة والمولود تحت الناموس مثل كل أبناء شعبه (غل ٤:٤) كان يشبه إخوته في كل شىء (عب ٢:١٧) وكان مُجرَّباً في كل شىء مثلنا (عب ٤:١٥) لكنه منذ صباه قرَّر أن يضع نفسه بالكامل في مشيئة اللّٰه (لو ٢:٤٩) أحب هذه المشيئة جداً فاتسع قلبه لها (عب ١:٩) كانت له طعامه الذى يقتات به في وسط جيل كان يقتات بالإثم (يو ٤:٣٤) بل كان يحيا بها وليس بالخبز وحده (مت ٤:٤) حتى قيل عنه بالحق في درج الكتاب «أن أفعل مشيئتك يا إلهى سررت، وشريعتك في وسط أحشائى» (مز ٤٠:٨).

ولأنه قدّم حياته بهذا الشكل لمشيئة اللّٰه لذلك وجد الروح المبارك الفرصة لكى يعمل بكل حرية في حياته، واستطاع أن يملأه بكل مشيئة اللّٰه بكل أوجهها المتعددة وأعماقها المتنوعة، وبعدما تكلم قديماً مع الآباء بأنواع وطرق كثيرة استطاع أن يقول كل ما يريده في شخص واحد هو ربنا يسوع المسيح له المجد، الذى لم يعاند هذه المشيئة قط وإلى الوراء لم يرتد، فاتسعت حياته لمحبة اللّٰه الباذلة لأجل الإنسان، وأيضاً اتسعت لعدالة اللّٰه الساحقة لشر الإنسان!! فوجدت الحمامة موطئاً لقدميها عليه، والنار أيضاً وجدت مستقراً لها في وسط أحشائه!!

لم يقبل جوانب من مشيئة اللّٰه ويرفض أخرى، بل أحب المشيئة كلها ووضع حياته لنقلها كلها، ولذلك سُرَّ به الآب وجاهر بهذا السرور على جبل التجلى عندما ظن بطرس أن يسوع يمكن أن يكون مثل موسى وإيليا فأتاه الصوت من السماء أن يسوع وحده اكتمل فيه السرور ويحق له وحده

الخضوع (مت ١٧: ٥) فإن كان موسى قد حمل جانباً من المشيئة وحمل إيليا جانباً آخر، فإن يسوع وحده اجتمعت فيه كل الجوانب المتقابلة، الرحمة والحق التقيا في قلبه والبر والسلام تلاثما هناك (مز ٨٥: ١٠).

لذلك كان حضور الروح في حياته كاملاً وغزيراً وليس كمسحة محدودة كما هو الحال مع كل رجال اللّه في كل العصور، كانت مسحة الروح لحياته تتميز بالغزارة وبابتهاج قلب الآب به، لذلك قيل عنه «مسحك اللّه إلهك بزيت الابتهاج أكثر من شركائك» (عب ١: ٩).

قياس قامة مـلء المسيح

هذه هى قامة المسيح، وهذا هو قياس ملئه!! لقد امتلأ بكل ملء اللاهوت وهو بعد في الجسد (كو ٢: ٩) لقد وضع فيه اللّه كل ملء مشيئته بسرور (كو ١: ١٩) وعندما أكمل عمل الفداء أقامه من بين الأموات وجعله رأساً لشعب كبير يكون جديراً بحمل تلك المشيئة الكاملة إلى العالم، وهذا الشعب هو الكنيسة (أف ١: ٢٣) وكل فرد في هذه الكنيسة ينبغى أن يرتبط بالرأس ويأخذ من ملئه نعمة فوق نعمة بحسب قدرة إنائه على الاستيعاب (يو ١: ١٦).

والروح المبارك الذي ملأ شخص المسيح هو نفسه الذى يتحرك في حياتنا الآن ويأخذ من ملء المسيح ويعطينا بحسب حكمته المتنوعة وبحسب قدرة أوانينا على الاستيعاب (١كو ١٢) والروح يشتاق أن ينقل مشيئة اللّه كاملة إلى أعماقنا كما هى في رأسنا المسيح، إنه يريدنا أن نبلغ إلى نفس قياس ملء المسيح (أف ٤: ١٣) وعندئذ فقط ستصبح الكنيسة جديرة بالانتساب للمسيح وقادرة على تتميم خدمته وتمجيد اسمه.

وخلاصة القول إنــه كلما تقدمنا في معرفة سبعــة أرواح اللّه سنجـد أنفسنا نتقدم في معرفة شخص ربنا يسوع المسيح، وكلما اقتربنا إلى أعتاب الروح لنسمع منه عن مشيئة اللّه سنجده يضع أمامنا شخص المسيح، لأنه وحده الذى له سبعة أرواح اللّه والذى امتلأ بكل مشيئة اللّه وتممها على الأرض، آه، ليتنا نحب هذه المشيئة كما أحبها هو، وليتنا نفتح أعماقنا أمام الروح كما فعل هو، وللحديث بقية.

قلنا إن الرب يسوع له المجد احتوى في شخصه كل مشيئة اللَّه، واليوم ينبغى أن نضيف أنه في نفس الوقت احتوى في شخصه كل طبيعة الإنسان، لقد نزل إلى أعماق قلب الإنسان وحمل على كاهله كل ضعف الإنسان وخطيته، ومن المؤكد أن الجمع بين ملء مشيئة اللَّه في سموها وعمق ظلمة الإنسان في حضيضها أمر مستحيل، وبلا شك أن الهوة واسعة جداً بين ما هو فوق جميع السموات وما هو في أقسام الأرض السفلى، ومَنْ يحاول أن يجمع بينهما لابد أن ينسحق، ومَنْ يريد أن يضع يديه على كليهما لابد أن يتمزق بينهما ، وهذا هو جوهر المصالحة التى صنعها يسوع بدمه.

وإذا كان اتساعه لكل مشيئة اللَّه جعله مُشبعاً لقلب الآب فإن احتماله لكل طبيعة الإنسان جعله قريباً لقلب الإنسان، لو كان يمتلك ملء مشيئة اللَّه فقط لشعرنا بالفجوة الواسعة التى تفصل بيننا وبينه حتى يستحيل أن نقترب إليه، أما كونه يحتوى ما في قلوبنا أيضاً فهذا يجعلنا نقترب منه بلا خوف لكى ننهل من ملء مشيئة اللَّه التى فيه، لقد أصبح يسوع هو حلقة الوصل بين سبعة أرواح اللَّه وأعماقنا الساقطة!!

وبأسلوب سفر الرؤيا الرمزى نقول إن احتواء يسوع لمشيئة اللَّه جعله يمتلك سبعة أرواح اللَّه، أما احتواؤه لأعماق الإنسان فجعله يمتلك:

السبعة الكواكب

السبعة الكواكب هم ملائكة سبع الكنائس (رؤ ١ : ٢٠) وهم صورة رمزية تشير إلى مؤمنى الكنيسة في كل أطوارها الروحية والتاريخية، وكما قلنا سابقاً إن لفظ «سبعة» أرواح اللَّه لا يشير إلى عدد بل إلى كمال وشمول وتنوع عمل الروح القدس، كذلك نقول الآن إن لفظ «سبعة» كنائس لا يشير إلى عدد معيّن بل بالحرى إلى كمال وشمول وتنوع المراحل التى ستجتازها الكنيسة منذ يوم الخمسين وإلى يوم الاختطاف.

وعندما نرى السيد ممسكاً في يمينه سبعة الكواكب فهذه صورة رمزية تحاول أن تصوِّر لنا حقيقة أن السيد له مطلق السلطان في حياة المؤمنين كأفراد وككنيسة، وأن في شخصه كل الكفاية في كل المراحل التى سيجتازونها من البداية وإلى النهاية، وهو لم يمتلك هذا السلطان والحق إلا

لأنه نزل إلى أعماق الإنسان وحملها أمام اللّه ودفع ثمنها كاملاً، مما أعطاه الحق في أن يأتى بهؤلاء المؤمنين من أعماق الخطية ويفك عنهم قيودها ويحررهم من قبضة إبليس ويصعد بهم أمام عرش اللّه مبرَّرين وبلا لوم.

ليس لأحد أن يمتلك سبعة أرواح اللّه إلا إذا اتسع كيانه لكل مشيئة اللّه، وليس لأحد أن يمتلك سبعة الكواكب إلا إذا اتسع كيانه لكل طبيعة الإنسان، ولم يتسع كيان لهذه وتلك إلا كيان هذا الشخص الفريد حتى استحق هذا الحق المزدوج: «الذى له سبعة أرواح اللّه وسبعة الكواكب»!!

الحق المزدوج

وهذا الحق المزدوج نراه جلياً في الرسائل السبع الواردة في (رؤ ٢، ٣) ففى صدر كل رسالة نرى حق يسوع في أن يعرف كل ما في أعماق الإنسان، فنراه يبدأ كلامه بالقول «أنا عارف أعمالك...» !! إنه يعرف جيداً ما في أعماق المؤمنين ليس بصفته مراقباً بل بصفته فادياً!! لقد نزل إلى أعماق هذه النفوس وحملها أمام اللّه فكيف لا يعرفها!! ولأنه دفع دمه ثمناً لهذه الأعماق فمن حقه أن يخرجها إلى النور ويمتحنها ويدينها.

أما في خاتمة كل رسالة فنرى حق يسوع في أن يعرف كل ما في قلب الروح، حتى إنه يختم كلامه بالقول «مَنْ له أذنان للسمع فليسمع ما يقوله الروح للكنائس»!! فرغم أن يسوع هو المتكلم للكنيسة إلا أنه يؤكد أن ما قاله هو بالضبط ما يريد الروح أن يقوله للكنيسة!! لقد امتلأ بسبعة أرواح اللّه حتى صار له الحق أن ينطق باسم الروح، وصارت أقواله وأحكامه هى بالضبط أقوال وأحكام شخص الروح القدس.

كان لابد لنا من هذه المقدمة قبل أن نتقدم أكثر في الحديث عن سبعة أرواح اللّه لكى يظل راسخاً في أذهاننا أنه ما كان لنا أن نعرف شيئاً عن الروح إلا من خلال يسوع، وما كان لنا أن نفهم أعمال الروح المبارك إلا إذا رأيناها أولاً في شخص يسوع، وأننا لن نستطيع أبداً أن نمتلىء بالروح إلا بشفاعة يسوع ومن خلال شركتنا معه والتصاقنا به، فلنستودع أنفسنا إذاً بين يديه كالكواكب السبعة لكى يقودنا إلى كل مشيئة اللّه وملء رضاه، وللحديث بقية.

تتعدد أوجه تعاملات الروح مع جنسنا البشرى، وكل وجه من هذه الأوجه له سماته التى قد تختلف في ظاهرها وأساليبها عن سمات الأوجه الأخرى حتى إن النظرة الخارجية لهذه التعاملات تراها من صنع أرواح متعددة، ولكن النظرة العميقة لجوهر هذه التعاملات تراها ذات جوهر واحد لأنها نابعة من شخص الروح الواحد الذى في كل تعاملاته ـ مهما اختلفت وتنوعت ـ يهدف إلى شيء واحد ألا وهو تتميم مشيئة اللّه على الأرض.

ورغم أن الأصل في أقنوم الروح هو أنه غير منظور، وصفاته لا يمكن وضعها تحت الملاحظة والفحص، إلا أنه في بعض الأحيان يقدم لنا نفسه من خلال بعض الصور الرمزية والهيئات الجسمية التى تقرِّب إلى أذهاننا بعضاً من صفاته وأعماله، لعلها تساعد الإنسان في أن يتوافق مع الروح في صفاته ويخضع له في تعاملاته ويشترك معه في أعماله.

وإن كنا لا نستطيع أن نرى أعماق الروح ونفحص أعماله إلا أننا نستطيع أن نتدارس سوياً تلك الصور الرمزية التى وردت في الوحى المقدس والتى تشير إلى الروح المبارك ونحاول أن نستخلص منها ما أراد اللّه أن نعرفه عن الروح، لعل هذا يقرِّبنا إلى فهم أعمق لشخصه الكريم وبالتالى إلى توافق أكثر مع أعماله ومشيئته في حياتنا.

الصورة الأولى : الحمامة

«فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، وإذا السموات قد انفتحت
له فرأى روح اللّه نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه» (مت ٣ : ١٦)

عندما حانت بداية الخدمة العلنية للرب يسوع ذهب إلى يوحنا المعمدان ليعتمد منه. كان كل النازلين للعماد في نهر الأردن يحركهم دافع واحد هو «الهرب من الدينونة الآتية» (مت ٣:٧) أما هذا الشخص الفريد الكامل في كل طرقه فكان دافعه للنزول إلي نهر الأردن مختلفاً كل الاختلاف، كان دافعه هو «إكمال كل بر» (مت ٣:١٥) ولهذا لم يجد الروح لنفسه مستقراً إلا على هذا الإنسان لأن هناك توافقاً تاماً بينهما، فالروح هو الحامل لكل البر والعامل لتتميمه على الأرض، وها هو يسوع يقدم جسده وحياته لتكميل كل بر، ولذلك كان من اللائق أن يعلن الآب على الملأ أنه يُسر بهذا الإنسان، ويعلن الروح أنه وجد لنفسه أخيراً موطئاً في أرض الإنسان، ولهذا انفتحت السماء ونزل الروح بهيئة جسمية مثل حمامة واستقر عليه.

هل تجد لنفسك موطئاً في حياتى يا روح اللّه؟! هل تجد توافقاً بين قلبى وقلبك؟! هل تجد فىَّ قلباً يسعى لإكمال كل بر؟! ليتك تجد!!

ولسنا في حاجة هنا إلى تكرار القول إن روح اللّه منزَّه عن الشبه أو الانحصار في هيئة جسمية مهما كانت، ولا ينبغى أن نظن أن روح اللّه يشبه الحمامة من قريب أو بعيد، لكن اللّه لجأ إلى هذه الهيئة الجسمية لكى يقرِّب إلى أذهاننا الضعيفة حقائق روحية عظمى سوف تميز خدمة المسيح في الفترة التالية من حياته، فإذا كان الروح أكبر من أى شبه ولا يحتاج أن يعلن عن نفسه بأية صورة جسمية لكننا نحن نحتاج إلى هذه الصورة الجسمية لكى نستطيع أن نستوعب تعاملاته معنا.

لماذا الحمامة ؟!

كان الروح مزمعاً أن يصبغ حياة يسوع بصبغة معيّنة ويتمم من خلاله مشيئات خاصة ظلت كامنة في قلب اللّه ولم تعبِّر عن نفسها من قبل لأنه لم يوجد الإناء الإنسانى المؤهل لحملها، وتفاصيل هذه الصبغة والمشيئة كثيرة ومتنوعة ولكن إذا بحثنا لها عن عنوان واحد مختصر يجمل لنا كل محتوياتها فلن نجد أفضل من «الحمامة» لتكون عنواناً لتلك الحياة الفريدة.

عندما نذكر الحمامة تتوارد على الذهن فوراً معانى الوداعة والهدوء والسلام والمحبة والبساطة والنقاء، وهذه هى المعانى التى ظهرت في حياة يسوع وخدمته، وكانت واضحة في كل تفاصيل حياته حتى الصليب، لذلك فالحمامة كانت عنواناً مناسباً لتلك الحياة الكريمة.

لكن قبل أن ننتقل للحديث بالتفصيل عن كلٍ من هذه المعانى لابد أن نقول هنا إن نزول الروح في المعمودية لم يكن بداية عهد يسوع بالروح، حاشا، فحياة يسوع كلها منسوجة بالروح القدس منذ كان جنيناً في أحشاء العذراء، وفي كل حياته كان خاضعاً لقيادة الروح وتعاملاته، فبلاشك أن سرور الآب به في وقت المعمودية لم يكن وليد اللحظة بل تتويجاً لثلاثين سنة من الخضوع لمشيئة الآب في الظل وبعيداً عن عيون الناس، أما الآن فقد حان وقت خدمته العلنية للناس لذلك أتى الروح عليه بهيئة منظورة لتكون خدمته علنية ومؤيدة بسلطان من اللّه، وللحديث بقية.

(٧)

لماذا اختار الروح هيئة الحمامة ليحل بها على الرب في المعمودية؟ ما هى الصبغة التى كان مزمعاً أن يصبغ بها حياته المباركة؟ ما هى الروح التى كانت ستسود خدمته العلانية له المجد؟ ماذا يعنى «روح الحمامة»؟ إنه أولاً يعنى:

روح الوداعة

«ابتهجى جداً يا ابنة صهيون اهتفى يا بنت أورشليم، هوذا ملكك يأتى إليك.
هو عادل ومنصور، وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان» (زك ٩ : ٩)

قبل تجسد الرب بخمسمائة عام تنبأ زكريا عنه بأنه سيكون وديعاً، وفي ملء الزمان تحققت هذه النبوة وتجسدت روح الوداعة بالكامل في شخصه الكريم، ألم نقل أنه وحده الذى امتلك سبعة أرواح اللّه وفيه اكتملت كل أعمال وصفات الروح!

وروح الوداعة روح كبيرة تشمل الحياة كلها وتتحكم في كل تفاصيلها وتسرى في كل علاقاتها ومعاملاتها مع النفس ومع اللّه ومع الآخرين، إنها ليست كما يعتقد البعض مرادفاً للاستكانة والضعف والخنوع والمهادنة، بل هى روح قوية استطاعت عندما اكتملت في شخص الرب أن تقف أمام إبليس وأرواحه الشريرة المسيطرة على الشعب وتهزمهم، ولذلك يقرن زكريا صفة الوداعة بصفة الانتصار في نبوته، رغم أن الكثيرين لا يستطيعون أن يجمعوا في أذهانهم بين الصفتين لأنهم تعلّموا أن الوداعة تتناقض مع القوة والغلبة، مما دعا البعض إلى الاعتقاد بأن النبوة ينبغى أن تنقسم إلى شقين: حيث كان الرب وديعاً فقط في مجيئه الأول وسيكون منصوراً في مجيئه الثانى، لكننا لا نجد أى مانع في أن نؤمن بأن الرب كان منصوراً في مجيئه الأول كما كان وديعاً، وسيكون وديعاً في مجيئه الثانى تماماً كما سيكون منصوراً، كل ما يعوزنا هو فهم صحيح للوداعة لنعرف أنها لا تتعارض مع الانتصار، بل كانت هى بعينها السلاح الذى انتزع به الرب الانتصار على جحافل الجحيم وأرواح الخداع والخبث والقسوة والعنف والبطش والموت!!

ماهية الوداعة

الوديع هو إنسان خائف اللّه، وخوف اللّه يدفعه إلى أن يعطى كل ذى حق حقه دون زيادة أو نقصان:

١ ـ إنه يعرف حق اللّه ويخضع له، فهو لا يدين أحداً لأنه يعرف أن اللّه هو وحده «الديان» لذلك فهو يخضع لحق اللّه هذا ولا يحاول أن يأخذه لنفسه، وهو يخضع برضا لكل ما يسمح به اللّه من ظروف لأنه يعلم أن الرب هو «السيد» الذى من حقه وحده أن يقود الحياة كيفما شاء، وهو لا يرتفع فوق أحد لأنه يعرف أن الرب هو وحده المرتفع «رأساً» فوق الجميع وهو لا يجرؤ أن يسلب الرب حقه، وهو لا يجذب إليه أحداً لأنه يعرف أن الرب هو وحده «العريس» الذى ينبغى أن تنجذب إليه كل القلوب... إلخ.

٢ ـ إنه يعرف حق نفسه ولا يزيد عليه، إنه يقبل دائماً الحق من جهة نفسه مهما كان هذا الحق مؤلماً للنفس، إنه يعرف قدر نفسه كما يراها اللّه لذلك فهو لا يعطيها مجداً ليس لها ولا يحتل مكانة لا يستحقها، يعرف حدود وجوده ولا يسعى لفرض وجوده على حساب وجود الآخرين، إنه يعيش حقيقة نفسه أمام اللّه والناس بتلقائية وبدون افتعال.

٣ ـ إنه يعرف حق الآخرين ويمنحهم إياه، لا يفرض فكره واعتقاده عليهم لأنه يحترم حقهم في حرية التفكير والاعتقاد، يعطيهم دائماً حقهم في حرية التعبير عما في أنفسهم حتى لو كان ما في أنفسهم مضاداً له شخصياً!! نظرته ليست جارحة أو مقتحمة بل مملوءة عطفاً وتقديراً مما يشجع النفس التى أمامه على إخراج مكنونات قلبها والتعبير عن نفسها بحرية، إنه يحب الخير للجميع ويتمنى لهم النجاح حتى ولو صاروا أفضل منه!! في أحيان كثيرة يتراجع لكى يمنحك فرصة للتقدم، ويكف عن التعبير عن نفسه لتجد لنفسك مساحة للتعبير عن نفسك!! إنه دائماً يفرح بالحق ولا يفرح بالإثم، صانع سلام دائماً وبمحبته يستر كثرة من خطايا.

الوداعة والتواضع

يقترن في الكتاب دائماً التواضع مع الوداعة، والحق إنهما وجهان لعملة واحدة، وإن كان التواضع يشير بالأكثر إلى موقف الإنسان تجاه نفسه بينما تشير الوداعة في الأغلب إلى موقف الإنسان تجاه اللّه والآخرين، فإن كان التواضع هو حفظ الإنسان نفسه في حجمها الحقيقى دون زيادة فالوداعة هى إعطاء الآخرين حقهم دون نقصان، فالمتواضع هو مَنْ لا يمنح نفسه ما ليس لها بالحق والوديع هو مَنْ لا يأخذ من الآخرين ما لهم بالحق.

على كل حال فهذه كلها تعريفات نظرية لا تشبع أرواحنا ولا نستطيع أن نكتفى بها، لكن دعونا نحتفظ بها في أذهاننا ونحن نتبع خطوات الرب في حياته العملية لكى نتعلم منه عملياً ماهية روح الوداعة ومدى قوتها ونجاحها في تتميم مشيئة اللّه، لعلنا نستطيع أن نتعلم منه كيف نكون ودعاء ومتواضعى القلب، وللحديث بقية.

التعريفات النظرية لا تستطيع أن تعطينا تصوراً كاملاً لروح الوداعة، لذلك دعونا نتتبع خطوات السيد في حياته العملية لنتعلم منه الوداعة بالحق، ولنكتشف كيف أنها روح عظيمة مملوءة مجداً وانتصاراً، وإذا كان للوداعة ثلاثة اتجاهات نحو اللّه ونحو الذات ونحو الآخرين فدعونا نبدأ بالاتجاه الأول، أى وداعة المسيح في:

العلاقة مع الآب السماوى

خُلق الإنسان الأول ليكون خاضعاً لسيادة اللّه، وكانت طاعته لمشيئة اللّه هى هدفه الأسمى، وعبوديته للّه هى جوهر وجوده وتاج رأسه. وسيادة اللّه ليست من قبيل حب التسلط أو القسوة بل جوهرها هو الحب والعطاء، بل هى حق مطلق للّه لأنه صانع الإنسان والمالك الحقيقى لكل حياته، كما أنه الأعلم بما هو خير للإنسان وما هو شر، لذلك فعبودية الإنسان للّه هى من قبيل الثبات في الحق والوجود في المكان الصحيح.

لكن آدم فشل عند أول اختبار، ووجدناه يتمرد على إرادة اللّه الصالحة ويرفض الخضوع لوصاياه، وبهذا خرج من نطاق الحياة إلى نطاق الموت، لأن وجود الإنسان في نطاق الحياة مرتبط بوجوده في نطاق الخضوع للّه، فخضوع الإنسان للّه هو مصدر حياته وضمان مستقبله.

وعندما كسر الإنسان الأول نير خضوعه للّه لم يتمتع بالحرية كما أوهمته الحية القديمة بمكرها، بل وجد سادة آخرين ينقضُّون على حياته ويستعبدونه، فصار الإنسان عبداً لإبليس وجنوده، وصار عبداً لذاته وشهواته الجامحة، وصار عبداً للخطية (يو ٨:٣٤) بل صار الإنسان عبداً للإنسان، والتاريخ يشهد عن عصور طويلة تسلط فيها الإنسان على أخيه الإنسان بقسوة وعنف وشراسة، فملوك الأمم يسودونهم والمتسلطون عليهم يُدعَون محسنين (لو ٢٢:٢٥) وإذا كان الخضوع للّه حق فالخضوع للإنسان ليس من الحق في شيء بل جوهره الإدعاء الكاذب وحب السيطرة والقسوة، وإذا كان الخضوع للّه يحفظ للإنسان حريته ويقوده إلى ملء الحياة والبركة فالخضوع للإنسان ـ أى إنسان ـ يسحق الشخصية ويذل الكرامة، لذلك فنير العبودية للّه هين وحمله خفيف أما نير عبودية الإنسان فقاسٍ ينبغى كسره، وهكذا رفض الإنسان سيادة اللّه على حياته ليصير عبداً لسادة كثيرين (إش ٢٦:١٣).

واستمر تكاثر الإنسان وكل جيل يسلِّم الجيل التالى ميراثاً ثقيلاً من العبودية القاسية، الظاهر منها والمستتر، حتى قرر اللّه في مراحمه أن يكسر هذه السلسلة الجهنمية:

عبد يهوه الكامل

« الذى إذ كان في صورة اللّه لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً للّه، لكنه أخلى نفسه آخــذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس » (فى ٢:٦ ، ٧)

في ملء الزمان أرسل اللّه ابنه إلى العالم بمهمة محددة ألا وهى أن يعيد الإنسان إلى حالة الخضوع لسيادة اللّه، وليكون بداءة لخليقة جديدة تنجح فيما فشل فيه آدم ونسله، وذلك بأن يعيش في حالة عبودية كاملة للّه مهما كانت المقاومة العنيفة التى سيلقاها من «السادة» الآخرين الذين اغتصبوا السيادة على الجنس البشر».

ورغم أن جوهر علاقة يسوع مع أبيه السماوى هو المساواة، حيث لم يعتبر معادلته للآب خلسة بل حقاً، إلا أنه اختار أن يأخذ صورة «عبد» ويصير في الهيئة كإنسان ليحل محل آدم أمام اللّه، وليتمم باعتباره الإنسان الثانى من السماء ما فشل فيه الإنسان الأول من الأرض (١كو ١٥:٤٧).

كان ينبغى أن يقف موقف العبد تجاه اللّه، ومَنْ هو العبد؟ هو مَنْ لا يملك أى حق في نفسه بل كل حقوقه في يد سيده، ليس له حق اتخاذ قرار ما بالاستقلال عن إرادة سيده، ليس له أن يقرر مصيره أو يحدد مستقبله، فكل هذا من حق السيد وحده، العبد هو إنسان يعيش بإرادته بحسب إرادة شخص آخر.

لذلك أتى يسوع إلى العالم مسلحاً بنية الألم وبروح الوداعة، فمن ناحية كان يعلم أنه سيتألم كثيراً من «سادة» كثيرين يريدون أن يجذبوه خارج عبوديته للّه ويستأسروه إلى العبودية لهم، ولقد واجههم بنية الألم وانتصر (١بط ٤:١) ومن الناحية الأخرى كان ينبغى أن يمتلك الوداعة التى تعطى للّه حقه كاملاً في السيادة على كل تفاصيل الحياة، الوداعة التى تخضع لمشيئة اللّه وتقبل من يديه كل كأس يسمح به، حتى بدا في أحيان كثيرة كشاة تساق للذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها، ولذلك كانت الحمامة الوديعة هى أصدق إعلان عن ذاك المزمع أن يصير عبد يهوه الحقيقى، ذاك الذى لم يأتِ ليكون سيداً بل عبداً، لا ليُخدم بل ليَخدم.

ولقد انتصر سيدنا الوديع وتمم مهمته بنجاح، فمن الناحية الواحدة أباد بالموت ذاك الذى له سلطان الموت، ومن الناحية الأخرى قدّم بروح الوداعة للآب خضوعاً مشبعاً لقلبه، وكان في هذا الانتصار فداء للجنس البشرى وباب مفتوح لشعب سيولد يخضع لسلطان اللّه وحده، أى الكنيسة، وللحديث بقية.

أتى يسوع إلى العالم ممتلئاً بروح الوداعة التى تعطى اللّه حقه في السيادة المطلقة على الحياة، واختار بإرادته أن يضع نفسه في طاعة كاملة للّه، وأن يحيا باختياره حياة العبودية المطلقة للآب، وأن ينجح فيما فشل فيه آدم الأول عندما رفض الخضوع لسيادة اللّه على حياته فسقط تحت الموت وعبودية إبليس وجرّ معه كل الجنس البشرى إلى الحمأة عينها.

سرور الآب : الهدف الأسمى

يخطىء مَنْ يظن أن فداء الإنسان كان هو الهدف الأسمى الذى لأجله تجسد الرب وجاء إلي العالم، بل الحقيقة هى أن رضا الآب وسروره ورجوع حقه في السيادة الكاملة على حياة الإنسان كان هو الهدف الأول والأسمى، وما فداء الإنسان إلا نتيجة طبيعية لرضا اللّه عن حياة وذبيحة الابن المبارك، فاكتمال سرور الآب بحياة يسوع الكاملة هو الذى منح لذبيحته قوّتها الكفارية والشفاعية لحساب الخطاة.

كل ذبائح العهد القديم كان المقصود منها إرضاء اللّه بالتعبير عن مواقف الإنسان الصحيحة والمفترضة تجاه اللّه مثل الاعتراف بالخطأ والتوبة عنه والخضوع لحكم اللّه ودينونته على الخطية، أو مثل التكريس الكامل والشكر الدائم، لكن أياً من هذه الذبائح أو مقدميها لم تكتمل فيهم هذه المعانى التى ظلت بعيدة عن حياة الإنسان العملية مما جعل الذبائح تفقد كل قيمتها في نظر اللّه، لأن اللّه لم يُرد الذبائح في حد ذاتها بل معانيها في الحياة العملية، إنه يريد رحمة لا ذبيحة:

«لذلك عند دخوله إلى العالم يقول ذبيحة وقرباناً لم ترد
ولكن هيأت لى جسداً، بمحرقات وذبائح للخطية لم تسر،
ثم قلت ها أنذا أجىء.. لأفعل مشيئتك يا اللّه» (عب ١٠:٥ ـ ٧)

ولأن إرادة اللّه وسروره لم يكتملا بنظام الذبائح لذلك كان ينبغى أن يهيىء جسداً للابن المبارك يدخل به إلى العالم بمهمة محددة ألا وهى أن يفعل مشيئة الآب، جسداً تكتمل فيه كل معانى الطاعة والخضوع لإرادة اللّه، جسداً يحب مشيئة اللّه أكثر مما يحب الحياة نفسها، جسداً تتكسر عنده كل أمواج المقاومة والتشكيك والترهيب والترغيب التى تمارسها الحية القديمة لكى تثنيه عن إتمام خضوعه للآب، جسداً يجد فيه الآب راحته وسروره ورضاه، وأخيراً جسداً ينشق كالحجاب لكى يأتى بأبناء كثيرين إلى المجد!!

روح الوداعة تشمل كل الحياة

ولم تكن إلا روح الوداعة هى القادرة على تتميم هذا العمل الجليل، روح الوداعة التى شملت كل حياة الرب له المجد وأرجعت من خلالها كل حقوق اللّه المغتصبة، وكانت سيادة الروح على حياة الرب سيادة كاملة تصل إلى أدق التفاصيل وأعمق الخبايا ، مثل سكين الذبيحة التى كانت تصل إلى الأحشاء كلها وتخرجها وتضعها على المذبح لتشتعل فيها النار المقدسة لإصعاد رائحة سرور أمام اللّه.

بعض البشر استطاعوا أن يخضعوا لبعض حقوق اللّه في بعض جوانب حياتهم، كلٌ بحسب طاقته وبحسب معونة روح اللّه الذى كان يرف دائماً على وجه الأرض لا يجد لنفسه مستقراً كاملاً ، حتى جاء يسوع ووجدت فيه الحمامة مستقراً أخيراً ، لأنها وجدت إنساناً كاملاً يريد أن يخضع كل الوقت لكل حقوق اللّه في كل جوانب حياته!! فهو لم يشأ أن يسمع عن إرادة اللّه أو أن يتكلم عنها أو حتى أن يعملها فحسب بل أن «يكون فيها » (لو ٢:٤٩) أى أن تستأثر بكل حبه وطاقته ووقته.

سرور الآب : قوة الذبيحة

وبعدما اكتمل سرور الآب من حياة يسوع التى قدّمت ـ بروح الوداعة ـ كل الحق والمجد للّه، أصبح تقديم نفسه ذبيحة لأجل الخطاة أمراً مقبولاً لدى الآب، أى إن قوة الذبيحة وتأثيرها لا يكمن في أحداث الصلب ذاتها بل في رضا اللّه عن تلك الحياة المقدمة على مذبح الصليب، إبليس يريد أن يبعد أنظارنا عن تلك الحياة الكاملة ونمعن النظر في بشاعة آلام الصليب كما لو أن قسوة الأعداء وخيانة الأصدقاء وفظاعة الآلام هى التى أعطت لذبيحة المسيح قوّتها وأبديتها ، ولكن الحقيقة ليست هكذا ، فما هذه الأحداث إلا نتاج طبيعى لأرض الإنسان المملوءة قسوة وحسداً وحقداً ، ولا يستطيع هذا النتاج أن يضيف أى قيمة لتلك الذبيحة المباركة، لأن كل قيمتها وقوّتها تكمن في رضا الآب عن حياة الرب الكاملة، التى أشبعت قلب الآب وأعطت للذبيحة تأثيرها الأبدى (يتبع)

(١٠)

« ثم أُصعد يسوع إلى البرية من الروح ليُجرّب من إبليس » (مت ٤ : ١)

ملأ روح الوداعة شخص الرب يسوع له المجد، وقاده لحياة الخضوع الكامل لمشيئة الآب حتى في أدق التفاصيل، وهذا الأمر كان مضاداً للروح الذى في العالم، أى روح إبليس، روح التمرد والاستقلالية عن اللّه، ولقد حارب إبليس بكل شراسة دخول السيد إلى العالم منذ ولادته، وعندما بدأ الرب خدمته العلانية صارت الحرب أيضاً أكثر علانية وشراسة، مستخدماً كل أساليب الخداع والعنف ومستغلاً كل الأدوات البشرية المتاحة له.

ولكن روح الوداعة كما قلنا ليس روحاً ضعيفاً أو هيناً، بل هو روح منصور، قادر على مواجهة روح إبليس التى في العالم والانتصار عليها، بل العجيب أن روح الوداعة لم ينتظر الحرب ليقاومها بل هو الذى بدأها وخطا نحوها، فأول شيء فعله روح «الحمامة» بعد حلوله على الرب في المعمودية هو أنه قاده إلى البرية لكى يُجرَّب من إبليس!! أى إن الروح هو الذى سعى إلى المواجهة مع إبليس في البرية أى في عقر داره ومكان راحته (مت ١٢:٤٣) إن روح اللّه لا يتحرك أبداً برد الفعل بل دائماً يكون هو الفاعل، حتى في الحرب مع إبليس.

الوداعة.. تجاه إبليس!!

إذا كانت الوداعة هى إعطاء كل ذى حق حقه، فإننا نرى هنا جانباً آخر من وداعة الرب، أى اتجاه إبليس!! لقد أعطى الرب لإبليس حق التجربة باعتباره ـ حتى هذه اللحظة ـ رئيساً للعالم!! والروح الذى أعطى للآب حقه الكامل في السيادة على حياة يسوع أعطى لإبليس حقه الكامل في مقاومة ورفض حياة يسوع!! بل إنه لم يشأ أن يعطى للرب فرصة خدمته العلانية إلا بعد أن يعطى لإبليس فرصة مقاومته العلانية!! أربعون يوماً كاملة في البرية كانت فرصة إبليس لإكمال كل تجربة (لو ٤:١٣) وغنى عن البيان أن إبليس ما كان يستطيع أن يجرب الرب ما لم يكن الرب هو الذى أعطاه هذا الحق، كم أنت عجيب وقادر يا سيدى في وداعتك!!

الخضوع الحقيقى : في الخفاء

لم تكن وداعة الرب تجاه أبيه وخضوعه الكامل لإرادته من قبيل الشعارات الرنانة أو الخُطب الجوفاء، لم يكن تكريسه من ذلك النوع السطحى الذى ننادى به على المنابر ونتشدق به تحت وطأة المشاعر الملتهبة، بل كان من ذلك النوع السرى العميق الذى يظهر ويتجلى تحت الضغط وأمام المقاومة،

فهناك ـ في البرية ـ حيث لا يراه أحد إلا الآب، عبَّر الرب عن خضوعه الكامل لمشيئة أبيه، مَنْ كان هناك ليراه ويشيد به ويجازيه؟ لا أحد، لأنه لا يفعل أى شيء لاكتساب رضا الإنسان بل كل ما يدور في أحشائه هدفه إرضاء الآب وحده.

الخضوع الحقيقى : تحت الضغط

بعد صوم لمدة أربعين يوماً جاع الرب أخيراً، ونال منه التعب كل منال، وخارت قوى جسده جميعاً، وفي مثل هذه اللحظات تكون قدرة الإنسان على المقاومة شبه منعدمة، فغريزة الجوع في الإنسان هى أقوى الغرائز جميعاً، وفي هياجها تدفع الإنسان لفعل أى شيء ليسد رمقه، وإبليس الماكر ينتقى مثل هذه اللحظات ليوجّه سهامه الملتهبة، عالماً أنها بلاشك ستصيب هدفها، وهكذا انقضَّ على الرب ليعزف على وتر احتياجه الغريزى للطعام، وكان يخفى السم في العسل كدأبه دائماً، فالغرض الحقيقى لم يكن إشباع جوع الرب بل دفعه إلى عمل لم يطلبه منه الآب، وهكذا ينكسر قانون الخضوع للّه الذى يجعله لا يفعل إلا ما يطلبه الآب، لقد ظن إبليس أن الرب تحت ضغط الاحتياج سيمد يده لفعل ما تمليه عليه الحية القديمة، وكم تحت إلحاح الحاجة ومطلب الغريزة فقد الإنسان إيمانه ونسى تكريسه وكسَّر وعوده وحطَّم عهوده!!

ولكن هيهات!! إن خضوع الرب لمشيئة أبيه ليس من هذا النوع السطحى الذى نراه فينا وحولنا، الخضوع المزيف الذى ينسحق سريعاً تحت الضغط ويتلاشى، بل كان خضوعاً يقوى ويغلب تحت الضغط والمقاومة، فرأينا الرب وهو ضعيف في الجسد إلى الموت يقوى جداً في الروح ويجاهر أمام إبليس ـ ولدهشته الشديدة ـ أنه لا ينوى أن يفعل شيئاً لم يطلبه منه اللّه، حتى لو كان هذا الشيء ضرورياً جداً للحياة!! ذلك لأن الحياة بالنسبة للرب لا تستمر بالخبز وحده بل بكل كلمة تخرج من فم اللّه، إنه لا يستطيع أن يفعل أى شيء إلا بكلمة تخرج من فم اللّه، حتى تناوله للخبز!! الروح الذى قاده إلى البرية وإلى الصوم لم يدّبر له طعاماً بعد، ولذلك فهو ـ في خضوع كامل لهذا الروح ـ يرفض أن يتدخل من نفسه ليفعل شيئاً لم يدّبره له الروح، ألم نقل أنه عبد يهوه الكامل الذى اكتمل به سرور الآب!!

آه، كم نحتاج إلى روح الوداعة المنتصرة هذه!! فكثيرون منا مازالوا يعيشون بالخبز وحده، وكثيرون يحيون لأيام كثيرة دون أن يسمعوا كلمة واحدة من فم اللّه!! كلمة اللّه لم تعد بالنسبة لنا مسألة حياة أو موت كما كانت بالنسبة لسيدنا!! كم نحن في حاجة إلى الانكسار أمام اللّه ليسكب علينا روح عبد يهوه الكامل، روح المسيح له المجد ... وللحديث بقية.

(١١)

« ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل » (مت ٤ : ٥)

بعدما ارتد إبليس خائباً من هجومه الأول على شخص الرب له المجد نراه يستجمع قواه ليعاود هجومه مرة أخرى، وبعدما عزف له على وتر الغريزة نجده الآن يعزف على وتر آخر في غاية الخطورة، وتر مشدود دائماً في قلب كل إنسان طبيعى في انتظار مَنْ يعزف عليه!! نعنى به وتر..

مجـد الـذات

ذات الإنسان الطبيعى تجلس على عرش قلبه، تستأثر بكل حبه وخضوعه، منها تنبع كل أعماله وإليها يصبُّ كل نشاطه، إنها أخطبوط يمد أذرعه الكثيرة إلى كل ركن في الحياة، لابد أن توجد خلف كل دافع وتضع بصمتها على كل عمل.

منذ أن زرع إبليس في قلب الإنسان الأول أن يصير كاللّه والإنسان مازال حتى اليوم يصدق هذه الخدعة ويسعى جاهداً لتحقيقها!! يريد أن يأخذ المجد لذاته كاللّه، يريد أن يكون محوراً للاهتمام ومحطاً للأنظار كاللّه، إنه مستعد أن يفعل أى شىء ويذهب إلى أى مكان ويعتنق أى مبدأ يمنح لذاته مكاناً مرموقاً ويضفى عليها مجداً ولو زائفاً، إنه يستغل أى شىء في متناول يديه للوصول إلى مجد الذات حتى لو كان هذا الشىء هو الأمور الروحية والكتب المقدسة!!

الذات هى نقطة ضعف القلب الإنسانى وأساس سقوطه، ولذلك قرر إبليس أن يوجه سهامه المسمومة إلى هذه المنطقة في قلب الرب يسوع له المجد، وكان يعتقد أنه سيصيب منه مقتلاً، وكان يمنِّى نفسه بالانتصار، وأن ذات الرب الإنسانية لن تستطيع أن تقاوم الإغراء المقدم لها، لاسيما والعدو الخبيث قد حبك الخطة وأخفى الفخ وضخم الإغراء!!

لماذا جناح الهيكل ؟!

إذا كان المقصود فعلاً من كلام إبليس ـ كما يبدو في الظاهر ـ هو أن يلقى الرب نفسه من مكان مرتفع لكى تتلقفه الملائكة فالبرية التى كان الرب فيها هى خير مكان لذلك، فهى مليئة بالجبال المرتفعة التى تصلح لهذا الغرض، وبها الأحجار القاسية التى يُخشى منها على قدمى الرب له المجد!! هذا إذا كان المقصود هو تحقيق الوعد فعلاً، لماذا إذاً يأخذه إبليس إلى المدينة المقدسة ـ أورشليم ـ ويصعد به ليوقفه على جناح الهيكل حيث يمكن أن يراه جميع مَنْ في المدينة؟! هنا مكمن التجربة وغرضها الحقيقى، هنا السم المخفى في العسل!! إنه الإغراء المقدم للرب وهو في

ريعان شبابه وبدء ظهوره لإسرائيل، إبليس يقدم له الفرصة ليعمل عملاً خارقاً على مرأى من جموع الشعب مما يمنحه مجداً واسعاً وسريعاً.

وإمعاناً في حبك التجربة كان لابد من غطاء شرعى يخفى الهدف الردىء، وهنا لم يخجل إبليس من التقاط آية من المكتوب (مز ٩١: ١١، ١٢) ويقدمها للرب لتكون المادة التى تدفع يسوع ليفعل مشورة إبليس بضمير مستريح، ليكون في الظاهر متمماً للمكتوب بينما دافعه الخفى هو اكتساب المجد من الناس، وإبليس بارع جداً في استخدام أقوال اللّه في غير مواضعها الصحيحة ليخدع البسطاء ويسبب الكثير من الارتباك والسقوط!!

كم من رجال سقطوا أمام إغراء مجد الذات؟! كم من مسار مبارك توقف عند محطة الذات ولم يكمل؟! كم من أعمال جليلة تحطمت عندما بدأت الذات تطل برأسها؟! كم مرة استخدمنا المكتوب وكل ما هو مقدس مطية للوصول إلى مجد ذواتنا؟ بل كم مرة حاولنا أن نستغل اللّه نفسه لنصنع لأنفسنا اسماً ونجذب لذواتنا الأنظار؟!!

إن أى شاب في هذه السن كان لابد أن يضعف أمام إغراء المجد والشهرة، فمَنْ يستطيع أن يقاوم هذه التجربة؟ مَنْ يستطيع أن يكتشف السم الذى في العسل؟! أى روح تلك التى تستطيع أن تميز إبليس فوق جناح الهيكل المقدس مستخدماً للمكتوب؟!! إنها..

روح الوداعة .. مرة أخرى !!

لا تستطيع أى ذات أن تصمد أمام هذه التجربة وتكتشف العدو الخبيث الكامن وراءها إلا ذات وديعة تعطى للّه كل المجد ولا تسعى إلى أن تأخذ المجد لنفسها، ذات لا يؤثر فيها مجد الناس ولا يمثل لها جناح الهيكل والمدينة المقدسة أى إغراء من أي نوع، لقد أتى السيد له المجد إلى الأرض ليمجد الآب وهو لا يقبل مجداً من الناس (يو ٥: ٤١) ولا يشبعه إلا المجد الذى يمجده به الآب عند ذاته، مجده الأصيل ـ غير المكتسب ـ الذى هو حق شرعى له قبل كون العالم (يو ١٧: ٥).

أما فيما يتعلق بالمكتوب فالرب يعلم جيداً أن وعود اللّه مقدمة لنا لكى تزيد ثقتنا وخضوعنا للّه وليس لكى نمتحن بها، فنحن لا نستطيع أن نملى على اللّه توقيت وأسلوب تحقيقه لوعوده، فوعود اللّه موجودة لكى يستخدمها اللّه في توقيته هو لتحقيق مقاصده هو وليس لكى نستخدمها في توقيتنا نحن لتحقيق مقاصدنا نحن. ولهذا كله وقف الرب بثبات وبنفس قوية جداً في وداعتها، والتفت إلى إبليس قائلاً: «مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلهك» (مت ٤: ٧ ، تث ٦: ١٦). ومرة أخرى يتقهقر إبليس مهزوماً أمام روح الوداعة المنتصرة في شخص الرب، وللحديث بقية.

« ثم أخذه أيضاً إبليس إلى جبل عالٍ جداً، وأراه جميع ممالك العالم ومجدها » (مت ٤ : ٨)

لعل أحد أسباب حصول إبليس على لقب «بعلزبول» أى «إله الذباب» هو أنه كلما طردته عاد من جديد بإلحاح وإصرار ليهاجمك بدون كلل أو ملل!! ولهذا نجده بعد هزيمته مرتين أمام الرب يعاود هجومه بإصرار وتصميم كما لو أن شيئاً لم يحدث!! وفي هذه المرة نراه يشحذ كل قواه ويستخدم كل ما في جعبته ـ كل ممالك العالم!! ـ لإغراء الرب والعزف له على وتر آخر نجده في كل قلب إنسانى، نعنى به شهوة.

الكسب والامتلاك

بداخل كل إنسان شهوة جارفة تجاه الكسب والامتلاك، نراها منذ الطفولة المبكرة عندما يسعى الطفل إلى امتلاك الألعاب المختلفة وضمها بعضها إلى بعض وتخزينها، وتنمو معه وهو يكبر وتأخذ أشكالاً مختلفة تتدرج من محاولة امتلاك الأشياء وحتى محاولة امتلاك الأشخاص!! وهذه الشهوة لا تكتفى ولا تشبع وليس لها حدود، فعندما قال الرب له المجد «ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله...» لم يكن يبالغ البتة، حاشا، بل كان يشير إلى شهوة حقيقية في قلب الإنسان تشتاق أن تمتلك «العالم كله»!!

كل أساليب التجارة والإعلان والترويج تعتمد في الأساس على إثارة هذه الشهوة في قلب العميل حتى تدفعه لشراء سلع قد لا يحتاجها فعلاً!! فالإنسان قد يشترى أشياء كثيرة ليس لأنه يحتاجها بل لأنه يحتاج لامتلاكها، أى إنه ليس في حاجة للسلعة نفسها بقدر ما هو في حاجة للشعور بأنه امتلك شيئاً جديداً!!

وهذه الشهوة مركزية جداً في القلب الإنسانى، فشهوة المكسب تقف دافعاً وراء معظم أعمالنا، وإذا انطفأت هذه الشهوة وشعر الإنسان بأنه لا سبيل لكسب المزيد فإنه يفقد الدافع للعمل والاجتهاد، فالإنسان لن يتعب في عمل لا يرجو من ورائه مكسباً.

بل إن هذه الشهوة تقف كثيراً وراء أعمالنا الروحية وعلاقتنا باللّه، فكثيراً ما اقتربنا إلى اللّه لأننا نعتقد أننا سنربح من ورائه الكثير، بل إن الخدام كثيراً ما يعزفون على هذا الوتر في قلوب الناس لاجتذابهم إلى اللّه!! إن النفوس التى أحبت اللّه لذاته وليس للمكسب هى نفوس نادرة الوجود بالحق!! وخلاصة القول هو ما قاله فاحص القلوب لعبده حزقيال: «إن قلب الإنسان ذاهب وراء المكسب» (حز ٣٣:٣١).

لأجل كل هذا قرر إبليس أن يوجّه سهامه الملتهبة إلى تلك المنطقة الحساسة في قلب شخص الرب يسوع له المجد:

> «وقال له إبليس لك أعطى هذا السلطان كله ومجدهن لأنه إليَّ قد دُفع وأنا أعطيه لِمَنْ أريد. فإن سجدت أمامى يكون لك الجميع» (لو ٤ :٦، ٧)

ماذا كان إبليس يقصد من وراء هذا العرض؟ أين يكمن السم في العسل؟

أولاً : كان يريد أن يُثبت أن ما يدفع الإنسان للسجود للّه هو نفس الرغبة الدفينة لامتلاك المزيد، ويريد أن يُثبت أنه إذا حصل الإنسان على هذا المزيد من مصدر آخر غير اللّه فسوف يتحول القلب سريعاً ليسجد لهذا المصدر الآخر حتى وإن كان إبليس!! يريد أن يُثبت أنه ليس هناك «ساجدون حقيقيون» للآب، بل الكل تحركه شهوة الامتلاك وكل السجود فحواه الذات.

وثانياً : كان يريد أن يوقف سعى الرب منذ بدايته، فلو كان طموح المكسب هو ما يدفع الإنسان للسعى في الحياة فلماذا سيسعى إذا حصل على كل شيء مقدماً؟ فإذا حصل الإنسان على كل ما يطمح إليه منذ البداية فإنه يتراخى ويكف عن السعى وتنتهى رحلته من قبل أن تبدأ.

ثالثاً : كان يريد أن تثور في نفس الرب مقارنة بين ثمن رضا الآب وثمن رضا إبليس!! فإبليس يعلم من (مز ٢ :٨) أن الآب سيمنح الابن كل أمم الأرض ميراثاً له بعد طريق طويل من الألم والسحق والحزن، ولذلك فقد قرر إبليس أن يلوِّح أمام عينىّ الرب بنفس الميراث في مقابل أسهل جداً وهو السجود له!! وهو يقصد أن يغرس في نفس الرب أن ثمن رضا الآب باهظ ومكلِّف بينما رضا إبليس يحتاج إلى عمل بسيط وسهل وغير مكلِّف، فلماذا السير إذاً في طريق الموت والصليب إذا كان إبليس سيمنحه كل المجد والسلطان مجاناً؟! ولماذا تسلق طريق الأمانة الوعر إذا كان السير في طريق الخيانة أسهل؟! لماذا السجود للّه وحده إذا كان السجود لإبليس يمنحنا نفس المقابل وبطريقة أسهل؟!

رابعاً : إبليس يغار جداً من خضوع المحبة الذى يقدمه يسوع للآب، إنه يرغب في مثل هذا السجود، لقد حاول قديماً أن يكون موضع المحبة والسجود كاللّه فسقط، وكل خضوع العالم الآن له لا يشبعه لأنه مؤسس على الكذب وليس خضوعاً حقيقياً، لقد تسلط على العالم بالخداع وسلطانه مستمر بالخداع ولو توقف إبليس يوماً عن خداع الإنسان لفقد كل سلطانه، لذلك فهذا السلطان المؤقت الزائف لا يشبعه وهو على استعداد للتنازل عنه للرب في مقابل سجود حقيقى له!! وللحديث بقية.

هل كان إبليس صادقاً أم كاذباً عندما قال أن ممالك العالم قد دُفعت إليه؟ الحق أنه لم يكن صادقاً تماماً وأيضاً لم يكن كاذباً تماماً، لقد كان مخادعاً!! إن الصادق هو مَنْ يذكر الحق كله ولا شيء غيره،. والكاذب هو مَنْ يذكر أكاذيب لا علاقة لها بالواقع والحق، أما المخادع فيذكر «توليفة» من الحق والكذب، من الواقع والخيال!! توليفة متقنة محبوكة لا يسهل اكتشافها، إنه يذكر في مستهل كلامه بعض الوقائع وأجزاء من الحق لكى يعطى لأقواله مصداقية ويغرى المستمع بتصديقه، ولكنه سرعان ما يبنى على هذه الحقائق فروضاً وتفسيرات مضللة، ويخلص إلى نتائج كاذبة لا علاقة لها بالحق القويم، وهو يجيد إظهار الحقائق وإخفاء الأكاذيب حتى ينخدع البسطاء ويبتعلوا الطعام المسموم كله، هذا ما نسميه الخداع.

ممالك العالم .. لمَنْ؟

كون إبليس هو رئيس العالم حالياً فهذا حق كتابى ذكره الرب نفسه أكثر من مرة (يو ١٢:٣١ ، ١٤:٣٠ ، ١٦:١١) ولكنه ليس كل الحق، لقد ذكر إبليس فعل «دُفع» مبنياً للمجهول ولم يذكر لنا مَنْ الذى دفع له هذا السلطان ولماذا وكيف وإلى متى؟!! والحق الكامل هو أن الأرض كلها ملك شرعى للّه بصفته الخالق (مز ٢٤:١) ولقد أعطاها في فضله للإنسان ليسودها ويثمر فيها (مز ١١٥:١٦ ، تك ١:٢٨) ونتيجة لسقوط الإنسان تحت سلطة إبليس بالخطية أُخضعت الأرض بالتالى لإبليس ليس طوعاً بل كرهاً، ولكن هذا الوضع شاذ ومؤقت لحين اتمام فداء اللّه الكامل للإنسان ـ بما فيه فداء الأجساد ـ وعندئذ ستُعتق الخليقة من عبودية الفساد وتعود ممالك العالم مرة أخرى لربنا ومسيحه (رؤ ١١:١٥) وتستطيع أن تقرأ هذا الحق الكامل في (رو ٨:١٩ ـ ٢٣) أى إن الأرض هى ملك للّه شرعاً وملك للإنسان فضلاً وملك للشيطان غضباً!!

ولقد ذكر إبليس للرب الجزء الأخير فقط من الحق وهو أنه المتسلط الحالى على الأرض، ثم أراد أن يبنى على هذا الجزء استنتاجاً باطلاً وهو أنه مادام متسلطاً فهو مستحق للسجود، ولكن الرب الذى يعرف الحق الكامل بل هو الحق الكامل ما كان يمكن أن ينخدع بهذا الضلال، فالمغتصب مهما امتلك وتسلّط سيظل مغتصباً ولصاً وتحت القصاص ومهما تأنى اللّه في قضائه وتمهل في قصاصه إلا أن الحق لابد أن يعود لصاحبه ولابد للمغتصب أن يلقى جزاءه، هو وكل مَنْ سجد له وربط نفسه بمصيره المظلم (رؤ ٢٠:١٠) وعجباً لَمنْ يسجد للص ومغتصِب ويربط مصيره بمصير إله مؤقت محفوظ له قتام الظلام للأبد!!

أحقاً قال اللّه ؟!

لقد استخدم إبليس أسلوب الخداع هذا منذ بدء تعامله مع الإنسان وحتى اليوم، فعندما قال لحواء قديماً «... تكونان كاللّه عارفين الخير والشر» كان يذكر جزءاً من الحق، فالكتاب يقول «هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر» (تك ٣:٥ ، ٢٢) ولكنه بنى على هذا الجزء فرضاً خاطئاً وهو أن اللّه يخشى أن يصير الإنسان مثله ولذلك فهو يحاول بالوصية أن يمنع عن الإنسان هذا الخير، وهذا محض ضلال، فاللّه لا يمكن أن يخشى أن يصير هذا الكائن الترابى مثله حتى بعد أن يعرف الخير والشر، فمعرفة اللّه للخير والشر لا تماثل معرفة الإنسان لهما، فاللّه يعرف الخير والشر معرفة كاملة مطلقة باعتباره الخالق المسيطر على هذا الكون بكل ما فيه من خير وشر (إش ٤٥:٧) أما معرفة الإنسان فهى معرفة محدودة ناقصة وغير مجدية، فاللّه عندما يقول «... صار كواحد منا» يعنى التشابه من بعيد، التشابه مع الفارق الشاسع بين معرفة الخالق ومعرفة المخلوق، لكن إبليس عندما قال لحواء «تكونان كاللّه» فكان يلقى في روعها التشابه الذى يعنى التساوى والتكافؤ، وهذا هو الضلال بعينه، وهذا ما أثبتته الأحداث التالية، فعندما أكل الإنسان من الشجرة ظل إنساناً كما هو وظل اللّه إلهاً مرتفعاً كما هو، بل زادت الشُقة بينهما اتساعاً، ولم يستفد الإنسان من معرفته للخير والشر بل شقى بها!!

الحق الكامل يقول إن دافع اللّه من وراء وصية عدم الأكل من شجرة معرفة الخير والشر هو محبته الشديدة للإنسان، لقد أراد اللّه للإنسان أن يعيش بحسب الحياة المتدفقة إليه كل يوم من قلب اللّه وليس بحسب معرفته للخير والشر، ناموس روح الحياة يربط الإنسان باللّه برباط حى متجدد، أما ناموس معرفة الخير والشر فيضع الإنسان تحت سلطان النواميس الأدبية ومجموعات الأوامر والنواهى ويفتح عليه باب الصراع مع غرائزه الدفينة ومع قوى الشر في هذا الكون، فاللّه يعرف أن الإنسان أضعف جداً من أن يصمد أمامه، ولابد أن تهزمه الخطية وتقوده للابتعاد عن اللّه والموت الأبدى، ومعرفته للخير والشر لن تفيده لأنه سيعرف الخير ولن يستطيع فعله وسيعرف الشر ولن يجد منه مهرباً!!

لا يكفى أن نعرف أجزاء من الحق ونجهل أخرى لأن كل منطقة جاهلة بالحق فينا هى أرض خصبة للخداع وثغرة يسهل لإبليس الدخول منها لتدمير علاقتنا باللّه، لم يكن يكفى أن تعرف حواء الوصية بل كان ينبغى أن تعرف أيضاً دوافع اللّه الصالحة من وراء هذه الوصية، معرفة الوصية فقط وجهلها بدوافع اللّه جعل إبليس يستغل هذه المنطقة الجاهلة ويصوّر لها أن دوافع اللّه هى القسوة والأنانية!! لذلك قال الرب عن الروح القدس: «يرشدكم إلى جميع الحق» (يو ١٦:١٣). إننا في حاجة إلى جميع الحق لكن نحصِّن حياتنا من مكائد وخداع إبليس... وللحديث بقية.

(١٤)

« للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد » (مت ٤ : ١٠)

دعونا الآن نرفع عيوننا من على إبليس وظلمته وخداعه ونتطلع إلى ذلك القلب الذهبى الذى انطفأت عنده كل السهام الملتهبة، ذلك القلب الذى لم يُجدِ معه الإغراء بكل ممالك العالم ومجدهن، ذلك القلب الذى لم يشته أن يمتلك أى شىء لأنه يعرف أن اللّه وحده هو المالك لكل الأشياء، القلب المملوء بروح الوداعة التى لا تريد أن تأخذ أى مجد لنفسها بل تُسر أن يأخذ اللّه وحده كل المجد والسجود والعبادة.

لقد جاء السيد إلى العالم لكى يعيد ملكوت اللّه على كل الأرض، جاء ليعلن سلطان اللّه المطلق وحقه في امتلاك كل الأشياء والأشخاص، جاء ليعلن هذا بحياته وأقواله وأفعاله، ألم يعلمنا أن نصلى قائلين..

لأن لك المُلك (مت ٦:١٣)

تلك العبارة التى نرددها دائماً في صلاتنا دون أن ندرك معانيها العميقة، إن هذه العبارة تتصدى لشهوة الامتلاك التى تسود قلوبنا، إنها تعلن حقيقة أن اللّه هو المالك وحده لكل الأشياء، والإنسان لا يمكن أن ينال شيئاً إلا ما يعطيه اللّه، وفي هذه الحالة لن يكون «مالكاً» بل «وكيلاً»، والوكيل مهما كانت الأموال التى في يديه لا يمكن أن يضع قلبه عليها لأنه يعلم أنها ليست ملكاً مطلقاً له، وليس من حقه أن يتصرف فيها كما يحلو له بل ينبغى أن يتصرف بأمانة كوكيل أمين على أموال سيده، وهو يعلم أن هذه الوكالة ليست أبدية بل مؤقتة ومشروطة، وفي أى وقت تؤخذ منه أو يؤخذ هو منها!!

الإنسان الذى يصيب قدراً من الغنى يُصاب بنوع من الغرور والارتفاع المزيف، يعتقد أنه «مالك»، وهذا المُلك يعطيه الحق في السيادة والتسلط كما يمنحه الأمان والضمان للمستقبل، وهذا الإحساس الوهمى هو ما يسميه الرب «غرور الغنى» (مت ١٣:٢٢) لكن عبارة «لأن لك المُلك» تتصدى لهذا الوهم وتهدمه، فاللّه هو المالك الحقيقى لكل ما في أيدينا، ونحن لا نستطيع أن نضمن بقاءه في أيدينا لساعة واحدة قادمة، إن الضمان الذى يمنحه الغنى هو ضمان «غير يقينى»، والعاقل هو مَنْ يبنى ضمانه على شخص المالك والمعطى الحقيقى وليس على العطايا

الزائلة، ولقد عبَّر الرسول بولس عن هذا الحق بوضوح عندما قال «أوص الأغنياء في الدهر الحاضر أن لا يستكبروا ولا يُلقوا رجاءهم على غير يقينية الغنى بل على اللّه الحى الذى يمنحنا كل شىء بغنى للتمتع» (١ تى ٦:١٧).

هل وصل هذا الحق إلى أعماق نفوسنا؟ هل عالج فينا شهوة الامتلاك؟ إن إبليس مازال يتحرك في كل يوم على هذه الشهوة في قلوب شعب الرب. مازال يغريهم بإمكانية الحصول على المزيد، وبأنهم سيكونون أكثر سعادة إذا حصلوا على كذا وكذا، ورغم كونه مخادعاً إلا أن إغراءه كثيراً ما نجح، وكثيراً ما تحركت أعماقنا خلف شهوة الامتلاك، وكثيراً ما انحنت أعناقنا وجثت ركبنا أمام هذا السيد المغتصب المخادع لكى يعطينا أشياء أكثر، وخضعنا لقوانين هذا العالم وشروره لكى نحصل على المزيد من غناه، لقد رفض الرب أن يسجد لإبليس في مقابل جميع ممالك العالم، أما نحن فكثيراً ما سجدنا له في مقابل أشياء تافهة وقليلة، بل أحياناً بدون مقابل على الإطلاق!!

لمَنْ نسجد ؟!

إن السجود والعبادة ليست أفعالاً خارجية بل هى حالة قلب، فالعبادة في جوهرها هى المحبة والمخافة والخضوع لَمَنْ يملك في يديه أمور حياتى، والسجود ليس سوى اعتراف بخضوعى لَمَنْ أعلم أنه يملك خيرى وسعادتى، فلو صدَّقت أن العالم يملك لى حياة وسعادة فسأجد قلبى في حالة سجود لروح العالم بدون أن أدرى، ولو صدَّقت أن إبليس يستطيع أن يمنحنى خيراً لصار قلبى في حالة عبادة لإبليس حتى لو كنت بفمى أنكر هذا، فالقلب الإنسانى يسجد بالطبيعة لَمَنْ يرجو منه الخير.

أما إذا صدّقنا أن اللّه وحده يملك أن يعطينا الحياة والنفس وكل شىء (أع ١٧:٢٥) فعندئذ ستكون الوصية أمراً طبيعياً وتلقائياً:

للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد

كانت هذه الوصية هى رد الرب الحاسم على إبليس، لم تكن مجرد كلمات بل كانت خارجة من قلب ذهبى لم ينحن يوماً إلا للّه، ونفس طاهرة لم تجثُ إلا لإرادة يهوه، إنه الإنسان الكامل الذى لم يرجُ شيئاً من إبليس فلم ينحن أمامه، ولم يرجُ شيئاً من الناس فلم يخضع لهم، إنه الشخص الوحيد الذى تمت فيه هذه الوصية بالكامل، هل تعلمنا منه وانتقلت إلينا روحه الوديعة الطاهرة أم مازال كل منا يخفى تحت جلده عابد وثن؟!! وللحديث بقية.

بعد انتهاء فترة وقوف الرب على أرض إبليس انتقل إلى أرض الإنسان ليبدأ حياته العملية والعلنية، وروح الوداعة التى قادته في مواجهته لإبليس فوق الجبل هى ذاتها التى قادته في مواجهته للناس في كل مدينة وقرية، وإذا كان تسليمه كل شىء ليد الآب كان هو مفتاح انتصاره على إبليس فإن خضوعه وطاعته الكاملة للآب كانت هى سمة سلوكه بين الناس، ونحن لن نجد تلخيصاً لحياته المباركة أفضل من ذلك الذى قاله بولس بالوحى:

« وإذ وُجد في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب » (فى ٢ : ٨)

لقد كانت طاعة السيد للآب مختلفة نوعياً عن أية طاعة نراها في أنفسنا أو نسمع عنها في حياة المؤمنين وسير القديسين، لقد كانت طاعته مبدئية شاملة أما طاعتنا نحن فثانوية جزئية، ثانوية لأنها دائماً تأتى بعد أن يعلن لنا اللّه مشيئته ويحاصرنا بها ولا نجد منها مفراً، فعندما يعلن اللّه مشيئته بصورة واضحة للإنسان يبدأ الإنسان يتفاعل مع هذه المشيئة بصور مختلفة، فقد يساوم في تكلفتها أو يحاول أن يعدِّل في مسارها أو حتى أن ينأى بنفسه عن طريقها، ولكن إذا حاصرته المشيئة ولم يجد منها مهرباً فإنه قد يبدأ يستسلم ويحنى رأسه ويتعلم الطاعة!!

أما طاعة السيد فقد كانت طاعة مبدئية أى أنها سبقت إعلان أى تكليف أو مشيئة، لقد وضع إرادته وفق إرادة الآب وقرر أن يطيع مشيئته بسرور من قبل أن يُعلن له أى تكليف، لقد كانت الطاعة بالنسبة له موقفاً إرادياً مبدئياً أعطى للآب الفرصة الكاملة وأطلق يده لكى يضع في هذه الحياة المباركة كل إعلان أراده وكل مشيئة اختارها مهما كانت صعبة أو قاسية، لأن الطاعة مضمونة ومتوفرة من قبل أى تكليف أو إعلان.

وطاعتنا أيضاً جزئية أى إنها تختص بمشيئة خاصة أو تكليف محدد لا يشغل من مساحة حياتنا قدراً كبيراً، كل القديسين كانت لهم «مواقف طاعة» أظهروا فيها طاعة للّه في مشيئة محددة أو موقف خاص، أما بقية حياتهم فكانت تستمر لسنوات طويلة وفق الإرادة الشخصية بدون أى تكليف محدد أو مشيئة واجبة الطاعة، فذات الإنسان لا تحتمل أن تظل لفترات طويلة في طاعة لإرادة خارجية وموضوعة تحت التزام مستمر وخضوع متصل، فهذا الوضع يستلزم إنكاراً كاملاً للنفس لا تقوى عليه أية ذات إنسانية، واللّه العالم بطبيعة الإنسان لا يُحمِّله فوق طاقته، لذلك نراه في حياة أعظم أبطال الإيمان يعطى للنفس فترات راحة تعيش فيها وفق إرادتها الطبيعية بعد كل «موقف طاعة» استلزم خضوعاً وإنكاراً للذات!!

أما طاعة سيدى فلم تكن قط «مواقف طاعة» بل كانت «حياة طاعة»، طاعته شملت كل حياته بأدق تفاصيلها، في كل دقائق حياته كان يرفض أية إرادة طبيعية للنفس الإنسانية ويقبل إرادة أبيه مهما كانت مكلِّفة للنفس أو مهينة للذات، ولكى تتسنى له هذه النوعية من الطاعة الشاملة كان ينبغى أن..

يضع نفسه

الإنسان الطبيعى يُقدِّر نفسه كثيراً ولديه دائماً تخيل جيد عنها ويرسم لها في ذهنه صورة حسنة ويسعى دائماً أن يراها الآخرون في أفضل حال، وبالغريزة يُقاوم الإنسان كل اتجاه أو موقف يستشعر فيه الخطر على صورته، ويخاف جداً من أن يُوضع في موضع تهتز فيه الصورة التى يراها الآخرون فيه أو التى يريدها هو لنفسه، وهذه الصورة الذاتية هى دائماً العقبة الأولى التى واجهت كل رجال اللَّه في محاولتهم إطاعة اللَّه، فالطاعة ممكنة طالما كانت غير متضاربة مع الحد الأدنى من الصورة المقبولة التى يراها كل واحد لنفسه ويريد أن يراه الآخرون عليها، لكن عندما تبدأ الذات تستشعر الخطر على صورتها من مطلب معيّن أو اتجاه محدد تتخذه مشيئة اللَّه عندئذ يبدأ الصراع الداخلى المرير في قلب الإنسان، الصراع بين ذات تريد أن تتشبث بالحد الأدنى من الصورة المقبولة لنفسها وبين مشيئة اللَّه التى تبدو للإنسان أنها تتخذ مساراً مدمراً لتلك الصورة، عندئذ تصبح الطاعة صعبة ومكلِّفة والخطوة في اتجاهها لها ثمن باهظ ومقرونة بدموع كثيرة، لأن الإنسان لن يستطيع أن يطيع إلا إذا اضطر أن يتخلى ولو جزئياً عن تلك الصورة التى رسمها في مخيلته وتمناها دائماً لنفسه، هذا هو «وضع النفس»!!

لقد وضع سيدى نفسه بالكامل، أى إنه لم يشأ لها شكلاً حسناً ولا حتى حداً أدنى من القبول والمصداقية لدى الناس، ولذلك استطاع أن يطيع مشيئة الآب طاعة كاملة بلا حدود وبلا صراع، حتى عندما قادته هذه المشيئة لأوضاع مهينة ومؤلمة بحسب مقاييس أرض الإنسان وتقييمه، فأطاع عندما جعلته مشيئة اللَّه «محتقراً ومخذولاً من الناس» وعندما جعلته «لا صورة له ولا جمال» بل عندما جعلته «مهان النفس، مكروه الأمة، عبد المتسلطين»!! وحتى جعلته «خطية» و «ذبيحة إثم» على صليب الجلجثة، لقد أطاع حتى الموت موت الصليب!! وللحديث بقية.

قلنا إن روح الوداعة التى ملأت شخص الرب يسوع له المجد قادته إلى حياة الطاعة الكاملة للآب، طاعة من طراز فريد تختلف نوعياً عن أى مواقف طاعة رأيناها في حياة رجال اللّه القديسين، طاعة مميزة تبدو طاعتنا بجوارها ناقصة معيبة، قلنا عنها في المرة السابقة إنها طاعة مبدئية شاملة واليوم نضيف إنها

طاعة وفِق الساعة!!

لكل شىء زمان ولكل أمر تحت السماء وقت (جا ٣:١) فاللّه يسيِّر هذا العالم وفق أزمنة وأوقات محتومة لا تقبل التعديل (أع ١٧:٢٦) وهذه الأوقات والأزمنة هى في سلطان الآب وحده (أع ١:٧) وله وحده حق تغييرها (دا ٢:٢١).

يخطىء الإنسان عندما يظن أن حياته تسير بشكل عشوائى لا يحكمها توقيت أو زمن، وإبليس يريد أن يلقى في قلب الإنسان أن الأمور تسير كما اتفق لكى يبث في داخله روح الاستهانة والتسويف، ولكن الحقيقة هى أن لكل عمل تحت السماء ساعة محددة لا تتقدم ولا تتأخر، وإذا لم يميز الإنسان هذه الساعة ويفتد الوقت ويقم بالعمل المناسب في وقته المناسب فإن هذه الساعة قد تنتهى وتضيع الفرصة وإذا أراد أن يعمل هذا العمل في وقت لاحق لا يجد له مكاناً ولا قبولاً (عب ١٢:١٧) فللتوبة وقت ولطلب الرب وقت وللخلاص وقت مقبول، وطوبى لِمَنْ يطلب الرب في وقت يجده فيه (مز ٣٢:٦).

إن عدم تمييزنا للوقت يضيِّع منا فرصاً ثمينة ويجرُّنا إلى أخطاء مريرة، ورغم أنه ليس لنا أن نعرف بصورة مطلقة الأزمنة والأوقات التى جعلها الآب في سلطانه إلا أننا من الناحية الأخرى مطالبون بأن نميز علامات الأزمنة التى تخصنا وتوقيت اللّه بالنسبة لحياتنا لكى نستطيع أن نعمل ما يريده اللّه في الوقت الذى يريده اللّه، فالرب وبَّخ الفريسيين والصدوقيين لأنهم لم يستطيعوا أن يميزوا علامات الأزمنة (مت ١٦:٣).

بعضنا يظن أن الطاعة هى أن نعمل الأعمال التى نظن أنها مرضية عند اللّه، أى إنها طاعة لقائمة من الأعمال والوصايا، وهذه هى طاعة الناموس أو طاعة العبد، وهى لا تستلزم شركة حقيقية كاملة مع شخص اللّه نفسه، لكن الحقيقة أن الطاعة في العهد الجديد والتى رأيناها في

شخص الابن المبارك ليست طاعة لأعمال بل لشخص، إنها ليست فقط أن نعمل الأعمال التى يريدها اللّه بل أن نعملها وفِق التوقيت الذى يريده اللّه، لأن لكل وقت عند الآب أعماله التى قد تتغير بتغير الأوقات والأزمنة، ولذلك فهذه النوعية من الطاعة لا يمكن أن تكفى بمعرفة قائمة بالأعمال والوصايا بل تستلزم شركة حقيقية مع شخص اللّه في كل يوم وتوافق تام مع رؤيته للأزمنة والأوقات، إنها طاعة وفق ساعة الآب!!

لم تأت ساعتى بعد!!

إننا لم نر هذه النوعية الفريدة من الطاعة إلا في شخص الابن المبارك الذى كانت كل تفاصيل حياته تسير بحسب توقيت الآب، انظر إليه وهو في عرس قانا الجليل عندما فرغت الخمر منهم وتدَّخلت العذراء مريم لكى تحثه على تسديد الاحتياج الموجود، لكنه لم يكن ذلك الإنسان الذى يتحرك وفق احتياج المحتاجين ولا وفق شفاعة المتشفعين بل فقط وفق توقيت أبيه المحتوم، فسمعه يقول لها: «مالى ولكِ يا امرأة، لم تأتِ ساعتى بعد» (يو ٢: ٤) فقد كان لكل عمل من أعماله ساعة محددة ينبغى أن يتم فيها، وليس قبلها أو بعدها.

بل حتى سفره إلى أورشليم قبيل عيد المظال كان له وقته المحدد، فعندما طلب منه إخوته أن يصعد معهم إلى العيد قال لهم «إن وقتى لم يحضر بعد، وأما وقتكم ففى كل حين حاضر» (يو ٧: ٦) إن الإنسان الطبيعى يمتلك وقته، يستطيع أن يرتِّبه كما يشاء ويتحرك حين يريد، أما ابن اللّه المبارك فكل تحركاته كانت مرتَّبة من قِبل الآب ووفق توقيته الدقيق!!

أيها الآب : قد أتت الساعة!!

بل انظر إليه وهم يحاولون أكثر من مرة أن يقتلوه لكنه في كل مرة كان يجتاز فيما بينهم ويمضى، ولم يلق أحد يداً عليه لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد (يو ٧: ٣٠) فإن موته أيضاً كانت له ساعة محددة ومحتومة!!

ولكن عندما تيقّن أن ساعته قد جاءت رأيناه يرفع عينيه إلى السماء بكل طاعة وتسليم ويقول «أيها الآب: قد أتت الساعة» (يو ١٧: ١) ثم يتقدم إلى أعدائه ويسلمهم نفسه لكى يلقوا القبض عليه ويفعلوا به كل ما أرادوا!! حقاً إنه خادم يهوه الفريد الذى عرف كيف يعيش وفق توقيت أبيه، فعرف كيف يخدم في وقت الخدمة وكيف يصلى في وقت الصلاة وكيف يصمت في وقت الصمت بل وكيف يموت في وقت الموت!! آه، ما أحوجنا إلى طاعة من هذا القبيل!! (يتبع)

تكلمنا عن طاعة الرب يسوع للآب في أرض الإنسان، وقلنا إنها كانت طاعة شاملة مبدئية وكانت منضبطة تماماً وفق ساعة الآب وتوقيته، واليوم نضيف أن هذه الطاعة الكاملة الفريدة كانت أيضاً ..

طاعة رغم المقاومة

طاعة اللّه في وسط العالم لابد أن تلقى مقاومة عنيفة لا يعرفها إلاّ مَنْ عرف معنى الطاعة الحقيقية للّه، فالناس بالطبيعة لا تحب مَنْ يختلف عنهم، وأرواحهم تقاوم ـ ولو بشكل خفى غير ظاهر ـ كل مَنْ يستشعرون اختلافه عنهم، في البداية قد يحاولون استمالته ليعود إلى التوافق مع شكلهم وأسلوبهم المعتاد، وإذا لم تنجح هذه المحاولة يبدأون سعيهم لتدميره وعزله. والنفس عادةً لا تستطيع أن تحتمل هذه المقاومة لفترات طويلة، لأن الإنسان بطبعه يحب أن يكون مقبولاً من المجتمع المحيط به ويأتنس بقرب الناس ومحبتهم، والمقاومة المتمثلة في الاستمالة أو النبذ عادة ما تؤتى ثمارها سريعاً ويكف الإنسان عن سلوكه المغاير ويعود إلى موافقة الجماعة والسير في ركابها.

فالإنسان بطبعه كائن اجتماعى، يستمد سلامه وأمنه من الوجود في جماعة مترابطة متآزرة تساند بعضها البعض، جماعة تتشابه في سلوكياتها وأفكارها بشكل عام، وشرعية أى سلوك في هذه الجماعة مستمد من شيوعه وقبول الناس له وتعارفهم عليه أكثر مما يُستمد من موقف اللّه منه، وأيضاً عدم مشروعية أى سلوك تكون ناتجة عن عدم شيوعه وتعارف الناس عليه حتى وإن كان اللّه مصادقاً عليه!! لهذا السبب كان الأنبياء دائماً معرضين للانتقاد والرفض بل وللاضطهاد والقتل لاسيما من أهل بيتهم ووطنهم (مت ١٣:٥٧) لأن أهل البيت والوطن هم أكثر الناس رغبة في الاتحاد في شكل وأسلوب واحد، وبروز شخص ذى فكر مغاير وسلوك مخالف يصنع بينهم انقساماً ويشق صفوفهم، لذلك إما أن يكفّ عن اتجاهه المخالف ويعود لركب الجماعة وإما أن يزول من المشهد تماماً لكى يعود للجماعة سلامها.

والقادة الدينيون بالذات يتعاملون مع شعوبهم بحسب نظرية «القطيع»، أى أن مصالحهم تعتمد على بقاء الشعب في جهالته وسيره في ركب واحد بدون اعتراض أو تساؤل (حز ٣٤:١ ـ ٦) وبروز أى فكر دينى مستنير يصنع اضطراباً في صفوف «القطيع» ويضر كثيراً

بمصالح القادة، ولذلك كانت أيدى القادة الدينيين ملوثة دائماً بدماء الأنبياء كما قال لهم السيد له المجد (مت ٢٣: ٣١، ٣٧).

الروح الغريبة !!

والمجتمع اليهودى الذى كان ينعم بالهدوء الظاهرى تشوش واضطرب كثيراً عندما بدأ الرب له المجد خدمته، تعاليمه وسلوكه شقَّت الصفوف وأظهرت فساداً كثيراً كان مدفوناً ومخفياً في حياة الشعب وقادته، ومن ثم هاج المجتمع وتموّج بين مؤيد ومعارض ومتسائل ومتشكك، وعلى الفور تحركت أرواح القادة لتقاوم هذه الروح الغريبة التى أقضَّت مضاجعهم وعكَّرت صفو حياتهم وهدَّدتهم في سلطانهم ومصالحهم.

ولقد اتخذت هذه المقاومة الاتجاهات المعهودة، فبدأت بالاستمالة والمداهنة، فنقرأ كثيراً عن الولائم التى كانت تُقدم للرب ليس بهدف الترحيب له بل لاصطياد الأخطاء له، ووصلت محاولة الاستمالة إلى حد الامساك به لجعله ملكاً عليهم، ولكن الرب في طاعته الكاملة للآب لم تؤثر فيه هذه الولائم والترحيب المزيف، بل كان في كل وليمة يُصرُّ على كشف زيف مضيفيه وسوء قصدهم (لو ٧: ٤٤ ـ ٤٦) وعندما علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً انصرف عنهم إلى الجبل وحده (يو ٦: ١٥) لقد استطاعت روح الوداعة والطاعة بداخله أن تقاوم اغراء الحصول على رضا الناس، وفضَّل أن يمكث «وحده» في «الجبل» على أن يسكن وسط شعب لا يخضع لفكر اللَّه!!

ولما لم تفلح الاستمالة تحركت أرواح القادة ضد الرب في محاولة لتدميره وعزله عن بقية الشعب بل وقطعه من أرض الأحياء إن أمكن!! وتحرك «الرعاة» بالكذب والخداع في وسط «قطيعهم» بهدف تشويه صورة الرب ووصمه بأشنع الصفات في محاولة لجعل الشعب ينبذه ويسلمه للموت!!

أمام هذه المقاومة الجارفة كان المتوقع من أى روح إنسانية أن تخور وتخاف من الرفض والقطع وتعود تسترضى الناس وتهادنهم، لكن روح الوداعة والطاعة التى ملأت الرب لم تضعف أمام هذه المقاومة العنيفة بل ظلت على خضوعها للآب قابلة من يديه الكأس التى سمحت بها قداسته وعدله، حقاً سيول الهاوية لم تطفىء هذه الطاعة الفريدة!! وللحديث بقية

(١٨)

« أطاع حتى الموت موت الصليب » (فى ٢ : ٨)

قلنا عن طاعة يسوع للآب إنها طاعة مبدئية شاملة وفق الساعة ورغم المقاومة، واليوم نقول عن هذه الطاعة الفريدة إنها..

طاعة حتى الموت

كلمة «حتى» تفيد أقصى مدى تصل إليه الطاعة، ولكل واحد منا «حتى» الخاصة به!! فكل منا يستطيع أن يطيع «حتى» يصل الأمر إلى شيء ما محبب للنفس، وعندئذ لا يستطيع الإنسان أن يطيع أكثر وتتوقف مسيرة الطاعة في حياته ويبدأ يعيش على ذكرى الماضى.

لكل منا أموره المحبوبة التى لا يجوز الاقتراب منها ولا يستطيع التنازل عنها، وعادة ما تكون هذه الأمور هى نهايات الطاعة في حياتنا وعندها تتوقف مسيرة الخضوع، فهذا الأخ أطاع «حتى» تعلق الأمر بأمواله، وذاك أطاع «حتى» مُسَّت صحته، وثالث أطاع «حتى» تهدد سلامه الاجتماعى، ورابع أطاع «حتى» جُرحت كبرياؤه، ولاشك أن إبليس كان يراهن على أن طاعة يسوع لابد أن تستمر «حتى» تصطدم بعقبة ما ثم تنتهى، ولذلك نراه يضع في طريق الرب عقبات وخسائر متدرجة في شدتها وقسوتها لكى يوقف مسيرة طاعته لمشيئة الآب.

أول عقبة صادفت الرب منذ أول عظة ألقاها في مجمع الناصرة كانت فقدان رضا أهل مدينته، وما أقسى فقدان رضا الأهل على نفس الإنسان!! ما أقسى أن يفقد الإنسان كرامته في مدينته ووسط أهله، ولكن يسوع اجتاز هذه العقبة وترك آسفاً المدينة التى تربى بها وعاش فيها أيام صباه الأولى وشبابه المبكر، وبدأ يتجول من مدينة إلى أخرى كالغريب الذى ليس له أين يسند رأسه.

بعد ذلك بدأ إبليس يلوِّح له بخسارة كرامته وسمعته الحسنة لدى الشعب وذلك عندما بدأ الكتبة والفريسيون بما لهم من سلطان على أذهان الناس يروجون الشائعات حول شخص الرب وينسبون قواته إلى بعلزبول رئيس الشياطين، قاصدين تدميره نفسياً واجتماعياً لكى تتوقف طاعته عند هذا الحد وتتوقف معها مقاصد اللَّه، لكن سيدى اجتاز ـ بنفس نازفة ـ وسط حقدهم وأكاذيبهم ومضى مكملاً خدمته.

وعندئذ بدأ يهدده بفقدان مصداقيته لدى أقرب الناس إليه، شكوك المعمدان وخيانة يهوذا وإنكار بطرس وهروب التلاميذ، أراد أن يقول له إن كل حياته وخدمته قد مضت بدون أية قيمة، فليس فقط الشعب والقادة

قد انقلبوا ضده بل حتى القلة الذين صدَّقوه قد انصرفوا كل واحد إلى خاصته وتركوه وحده، وما أقسى الإحساس بالفشل والوحدة، وما أقسى شعور الإنسان بأن حياته قد مضت بلا جدوى!! وماذا يبقى للإنسان بعد فقدانه لأهله وسمعته وأقرب أصدقائه؟ ماذا يبقى له لكى يستمر يسلك طريق الطاعة الوعر هذا؟!! لكن سيدى اجتاز هذه العقبة أيضاً ومضى وسط مشاعر الجحود والنكران والهجر والخيانة مصمماً أن يشرب الكأس حتى آخر قطرة.

لقد تجرَّد سيدى من كل شىء ولم تبق له سوى حياته ذاتها، وهنا بدأ إبليس يلوِّح له بخسارة هذه الحياة أيضاً، أخذ يهدده بالموت، ليس فقط الموت بل

موت الصليب

موت الصليب يعنى الموت المصحوب بالعار والرفض والهوان والمذلة والألم المروِّع والإهانة والتشهير، فقد يموت الإنسان ويظل يحتفظ بذكرى طيبة في أذهان الناس، لكن إبليس كان يهدد يسوع بفقدان الحياة المصحوب بفقدان أية ذكرى طيبة في أذهان الناس، كان يهدده بأن يظل في أذهان الناس محسوباً في عداد الأثمة (إش ٥٣:١٢).

لكن العجيب أن روح الوداعة الذى ملأ سيدى لم يتراجع عن الطاعة حتى أمام هذه النوعية من الموت، كان على استعداد أن يخسر كل شىء لكى يتمم مشيئة الآب، لم يخر أمام قسوة وظلم وظلمة هذا المصير الرهيب الذى يلوح في الأفق، وهكذا اجتاز وسط مشهد المحاكمة والصليب دون أن يفتح فاه، مسلِّماً نفسه ليد صالبيه وهو في الحقيقة مسلِّمها لمشيئة أبيه، لقد انتصرت طاعته واستمرت «حتى» الموت موت الصليب، لقد قدَّم يسوع كل ما يملكه على مذبح طاعته للآب، لم يدّخر شيئاً ولم يؤخر عطاءً، وهذه الطاعة الكاملة الممزوجة بالمحبة الكاملة هى التى صعدت بخوراً طيباً أمام الآب، وهى التى اشترت لنا الغفران والفداء الذى نتمتع به اليوم.

دعنى أنحنى بامتنان أمام طاعتك الكاملة يا سيدى وأنا أسأل نفسى في خجل: «حتى» ماذا أستطيع أن أطيع مشيئتك في حياتى؟!

تحدثنا عن روح الوداعة التى ملأت الرب يسوع في علاقته بالآب، وقد رأيناها منذ تمثلت في هيئة حمامة تحل عليه في المعمودية وحتى الموت موت الصليب، ولقد تجلَّت هذه الروح أولاً في البرية وكانت هى مفتاح نصرة الرب في التجربة المثلثة لإبليس، ثم رأيناها في أرض الإنسان بعدما نزل الرب من جبل التجربة إلى أرض الخدمة العملية والعلنية، حيث وجدناه يخضع لمشيئة الآب ويطيعها طاعة مبدئية شاملة وفق الساعة ورغم المقاومة وحتى الموت، وقبل أن نترك هذه الجزئية لابد أن نلاحظ درساً ثميناً للغاية، درساً نتعلمه من ترتيب الأحداث في حياة ربنا المبارك، درساً يقول إن

النصرة تبدأ في الخفاء

معركة الرب مع إبليس بدأت بمصارعة شخصية في البرية، حيث لا يوجد سوى اللَّه والنفس وإبليس، وفي هذه المصارعة شحذ إبليس كل قواه وإغرائه وسلطانه وجمعهم في ثلاث تجارب، رأيناه يستغل الاحتياج الطبيعى للجسد لكى يحوِّل انتباه الرب إلى نفسه، ورأيناه يستغل أقدس الأماكن بل وكلمات الوحى المقدسة لكى يغرى الرب بمجد الذات، ثم رأينا قدرته على أن يجمع أمام الرب كل ممالك العالم ومجدهن في لحظة من الزمان.

وفي هذه المصارعة الشخصية يسهل على النفس أن تخطىء ولو بالفكر، وأن تتجاوب مع التجربة ولو بمشاعرها، لأنه في البرية لا يوجد رقيب من الناس يمكنه أن يرصد الخطأ ويدينه أو يلاحظ الصواب ويمتدحه، في البرية يبدو أن الخطأ بلا عقاب والصواب بلا مجازاة، في البرية لا يوجد سوى اللَّه وحده يراقب، لذلك لا ينتصر في هذه المصارعة إلا مَنْ أحب اللَّه وحده واشتهى رضاه فقط، لا ينتصر سوى مَنْ امتلأ بروح الوداعة التى تشتاق أن تعطى اللَّه كل المجد والطاعة، وبدون مقابل!!

خلاصة القول إن الصراع الشخصى في البرية كان مكثفاً وشاملاً، أما بعد النزول إلى الخدمة وسط الشعب صارت التجربة مفصَّلة أكثر، لم تختلف في جوهرها عن التجربة في البرية فإبليس ليس لديه تجارب أخرى يجرب بها الإنسان، إنه نفس الجوهر لكن بدلاً من أن تكون التجربة مكثفة أمام النفس «في لحظة من الزمان» صارت مفككة وموزعة على العديد من المواقف اليومية المتكررة والمتنوعة.

فإذا كان الرب قد تعرَّض في البرية مرة واحدة وبشكل مكثَّف لتجربة الاهتمام بالاحتياج الشخصى فإنه تعرض عشرات المرات في كل يوم لتجربة أن يعطى لجسده راحة أو يهتم قليلاً بحياته وأن يكف ولو للحظة عن بذل نفسه لكل الناس، حتى انتهره بطرس لكى لا يُسلِّم نفسه للموت عن العالم، لكن إذا كان الرب قد انتصر على هذه التجربة عندما أتته من إبليس ذاته بشكل مكثف وصريح ومباشر فمن الطبيعى أن يُستعلن انتصاره على هذه التجربة ذاتها عندما تأتيه في كل يوم من خلال أدوات إنسانية متعددة.

وإذا كان الرب قد رفض أن يأخذ مجداً لنفسه وهو واقف على جناح الهيكل فمن المنطقى أن يفشل الناس في خداعه بكلمات التملق والمداهنة المسمومة، وليس غريباً على مَنْ رفض إغراء كل ممالك العالم ومجدهن أن يرفض أن يختطفه الناس ليجعلوه ملكاً عليهم، إن انتصار الرب في مواجهته مع إبليس في الخفاء جعلت انتصاره العلنى والعملى في أرض الإنسان ليس سوى تحصيل حاصل، لقد خرج الرب من البرية إلى الحياة العملية غالباً ولكى يغلب!!

... ونفس الترتيب في حياتنا !!

الأمور تسير في حياة كل واحد منا بنفس الترتيب، فمعركتنا تبدأ دائماً بشكل شخصى وفي الخفاء، حيث يتواجه القلب مع إبليس الذى في سلطانه أن يكثِّف التجربة أمام النفس ويركِّزها في لحظة من الزمان، ويوجِّهها إلى نقاط الضعف المحددة التى يعرفها فينا، وهناك في الخفاء حيث لا يرانا أحد لكى يمتدحنا يكون الامتحان الحقيقى لولاء النفس ومحبتها للّه، وإذا استطاعت النفس أن تنتصر على التجربة في صورتها الشخصية المكثفة هذه فإن انتصارها على تفاصيل التجربة في صورتها العملية في أرض الواقع يكون محسوساً بشكل كبير ومن قبيل تحصيل حاصل.

والعكس أيضاً صحيح للأسف، فالفشل أمام التجربة في الخفاء والسقوط الدفين للقلب أمام الإغراء لابد أن يظهرا في سقوط علنى أمام التجارب اليومية في الحياة العملية، إن مَنْ انتصر يوماً أمام عينى اللّه فقط ولأجل اللّه فقط لابد أن يأتى اليوم حين يعلن اللّه انتصاره أمام عيون كل الناس، ومَنْ سقط أمام عينى اللّه وحده لابد أن يرى الجميع سقوطه عاجلاً أم آجلاً!!

أخى العزيز، هل أنت منتصر في الخفاء ؟! (يتبع)

قلنا إن الوداعة هى أن نعطى لكل واحد ذى حق حقه، ولقد رأيناها تتحرك في اتجاه اللَّه عندما قدَّم الرب يسوع للآب حقه الكامل في السجود والخضوع والطاعة، سواء في الخفاء في مواجهة إبليس أو أثناء خدمته العلانية في وسط الناس، واليوم نبدأ الحديث عن الاتجاه الثانى للوداعة ألا وهو اتجاهها للإنسان، فالشخص الوديع هو الذى يعطى للناس حقوقهم كاملة كما يعطى للَّه حقه كاملاً، ويخطىء مَنْ يظن أن حق اللَّه يتعارض مع حق الإنسان، أو أننا لكى نعطى للَّه حقوقه ينبغى أن ندوس حقوق الآخرين، حاشا، فالوداعة لا تتجزأ!!

وإن قلنا أن حق اللَّه هو الخضوع والسجود والطاعة الكاملة فما هى حقوق الإنسان؟ في الواقع إن هناك حقوقاً خاصة لفئات خاصة من الناس وهناك حقوق عامة لكل إنسان، وسنبدأ الحديث عن:

الحقــوق الخاصــة

هناك سلطان اجتماعى مثل سلطان الأبوين، وسلطان دينى لأصحاب المراكز القيادية في الجماعة الدينية، وسلطان مدنى للرؤساء والحكام، وينبغى على المؤمن أن يعطى لأصحاب هذه السلطات الاحترام والخضوع اللائقين، وفي هذا يقول بولس بوضوح «أعطوا الجميع حقوقهم: الجزية لَمَنْ له الجزية، الجباية لَمَنْ له الجباية، والخوف لَمَنْ له الخوف والإكرام لَمَنْ له الإكرام» (رو ١٣:٧) ويقول بطرس «اخضعوا لكل ترتيب بشرى من أجل الرب، إن كان للملك... أو للولاة... أكرموا الجميع، أحبوا الإخوة، خافوا اللَّه، أكرموا الملك» (١بط ٢:١٣ ـ ١٧) وما هذا إلا تطبيق للمبدأ الشهير الذى قرره الرب نفسه عندما قال «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما للَّه للَّه» (مر ١٢:١٧).

وفي كل حياة الرب يسوع نراه يعطى لأصحاب الحقوق الخاصة حقوقهم، ففي صباه رأيناه يخضع لسلطة أبويه (لو ٢:٥١) وأثناء خدمته رأيناه يخضع للسلطة المدنية ويعلِّم تلاميذه أن يخضعوا لها رغم عدم اقتناعه بمشروعية الضرائب التى تجمعها (مت ١٧:٢٤ـ ٢٧) وفي نهاية حياته الكريمة وجدناه يقف أمام بيلاطس ويقول له «لم يكن لك علىَّ سلطان البتة لو لم تكن قد أُعطيت من فوق» (يو ١٩:١١) لقد خضع يسوع لسلطان بيلاطس وحكمه الظالم ليس عن خوف أو اضطرار بل «من أجل الرب» على حد قول بطرس، أى من أجل أن الرب هو الذى أعطى لبيلاطس السلطان أن يكون في منصبه هذا ويصدر حكمه هذا، ونفس الحق تكلم عنه بولس: «ليس سلطان إلا من اللَّه، والسلاطين الكائنة هى مرتَّبة من اللَّه، حتى إن مَنْ يقاوم السلطان يقاوم ترتيب اللَّه» (رو ١٣:١، ٢).

وبولس كان تلميذاً ليسوع في وداعته، ولذلك رأيناه يعتذر أمام رئيس الكهنة عن كلماته القاسية، لأنه مكتوب: «رئيس شعبك لا تقل فيه سوءاً» (أع ٢٣:٥) فرغم علم بولس أن هذا الرئيس لا يحكم بحسب فكر اللّه إلا أن وجوده في منصبه الدينى هذا كان مسموحاً به من اللّه، ولذلك حقَّ له التوقير والاحترام!! نقول هذا لَمَنْ يظن أن اقترابه من اللّه يعطيه الحق أن يحتقر الرياسات ويتخطاها ويقاومها، ليس هذا فكر المسيح الوديع الذى أعطى الإنسان حقه تماماً كما أعطى للّه حقه.

الخضوع للسلطان وليس الخضوع للفكر

لابد أن نفهم أن الخضوع للسلطان شىء والخضوع للفكر شىء آخر تماماً، فالكتاب لا يطالبنا بالخضوع لفكر القادة متى كان مخالفاً لفكر اللّه بل يطالبنا فقط بالخضوع لسلطانهم، وغنى عن البيان أن الرب لم يخضع لفكر بيلاطس لكنه خضع لسلطانه في إصدار حكم الصلب، والتلاميذ لم يخضعوا قط لفكر رؤساء الكهنة لأنه ينبغى أن يُطاع اللّه أكثر من الناس، لكنهم في نفس الوقت لم يقاوموا أحكام السجن التى صدرت ضدهم، وبولس لم يخضع لحظة واحدة لفكر القادة ولم يحاول ارضاءهم، وعندما حكموا عليه بالسجن والموت خضع لسلطانهم وأسلم نفسه للسجن والموت دون أن يغيِّر هذا من فكره الذى ظل يكرز به حتى وهو في السجن، فالحكام يستطيعون أن يلقوا بولس في السجن الداخلى ويضبطوا رجليه في المقطرة، ولكنهم لا يستطيعون أن يمنعوه من الصلاة والتسبيح!! فجسد بولس خاضع لسلطان الحاكم لكن قلبه وعقله خاضعان لسلطان اللّه، ولا يوجد سلطان على الأرض يستطيع أن يمنع خضوع قلب المؤمن للّه، وعصور الاستشهاد تشهد عن ذلك.

أما الخضوع لفكر القادة ـ مهما كان خاطئاً ـ بهدف اتقاء شرهم أو كسب رضائهم فهذا من أعمال روح «المداهنة» وليست روح «الوداعة»، والفرق بينهما كالفرق بين الجحيم والسماء!!

ينبغى أن نفهم جيداً الفرق بين الخضوع للسلطان والخضوع للفكر، لأن البعض في أوساطنا الروحية يظن أن الخضوع للرياسات يعنى الطاعة لفكرهم حتى وإن كان مغايراً لفكر اللّه، لكن الحقيقة أننا ينبغى أن نستأسر كل فكرنا لطاعة المسيح وحده (٢كو ١٠:٥) وللحديث بقية.

قلنا إن الوداعة تعطى للإنسان حقوقه كاملة، وتكلمنا عن الحقوق الخاصة التى تحق لفئات معيّنة من الناس، واليوم نبدأ الحديث عن الحقوق العامة التى تحق لكل الناس: الكبير والصغير، الغنى والفقير، الرجل والمرأة، فالحقوق العامة هى الحقوق التى يحصل عليها الإنسان لمجرد كونه إنساناً، وأول هذه الحقوق العامة هو:

حق الاختيار

خلق اللّه الإنسان ذا إرادة حرة، وحرية الإرادة تمنح الإنسان امتيازاً وتضع عليه التزاماً، أما الامتياز فهو حقه في الاختيار الحر لطريقه في الحياة وطبيعة مسلكه فيها، فالإنسان الحر لا يجب أن تجبره على شىء ما وإلا تكون قد حطمت أهم مميزاته كإنسان عاقل ونزلت به إلى مستوى البهائم التى تُساق، الإنسان الحر يجب أن تعرض أمامه الاختيارات المتاحة وتظهر له عواقب كل منها ثم تتركه يختار ما يشاء، سواء كان اختياره هذا هو الصواب من وجهة نظرك أم الخطأ، فهذا هو حقه الأصيل في حرية الاختيار، وأما الالتزام فهو التزامه بحصاد كل ما زرعه وقبول نتائج اختياره أياً كانت.

واللّه يحب أن يعطى للإنسان حقه كاملاً في الاختيار، لا يفرض عليه أمراً حتى وإن كان صواباً ولا يجبره على عمل مهما كان حقاً، ورغم أنه القادر على كل شىء والحق المطلق المستحق للطاعة إلا أنه يتعامل مع الإنسان بالوداعة، يضع أمامه الاختيارات ويتركه يختار طريقه بحرية، اسمعه وهو يقول لشعبه القديم «أشهد عليكم اليوم السماء والأرض، قد جعلت قدامك الحياة والموت، البركة واللعنة، فاختر الحياة لكى تحيا أنت ونسلك» (تث ٣٠:١٩).

الاستبداد

وعكس الوداعة في هذا المجال هو الاستبداد، أى إرغام الإنسان على قبول فكر أو سلوك طريق ضد إرادته ورغم مشيئته، والاستبداد كثير ومتنوع ومنتشر حولنا في كل مكان بينما الوداعة جوهرة نادرة الوجود، والاستبداد قد يكون نفسياً أو اجتماعياً أو سياسياً أو فكرياً، فكل إنسان يمتلك سلطة ما ـ نفسية أو اجتماعية أو سياسية أو فكرية ـ يميل إلى استخدام سلطته في إجبار تابعيه على اعتناق فكره ومسايرة إرادته وتتميم مشيئته، فالسلطة من شأنها أن تصيب الإنسان بالغرور حتى إنه يمتلىء تماماً بذاته ويكتفى جداً بفكره ويعتقد أنه وحده يعرف الصواب

لذلك لا تجد لديه أذناً تسمع فكر الآخرين أو تحترم وجهة نظرهم، إذا تكلم تجده ينتظر من سامعيه الخضوع والمصادقة على فكره، وإذا لاحظ أن أحدهم لا يريد أن يستمع إليه أو يصادق على أقواله اشتعل بداخله الغضب والرفض ضد هذا الإنسان!! كم هو عجيب أن الإنسان يسلب أخاه الإنسان حقه في الاختيار رغم تفاهة المعرفة الإنسانية ومحدوديتها ونسبيتها بينما يظل اللّه يحفظ للإنسان حرية اختياره رغم كمال معرفته ـ تبارك اسمه ـ وامتلاكه للحق المطلق.

تعلموا منى.. لأنى وديع!!

لم يشهد التاريخ كله معلماً امتلأ بروح الوداعة مثل شخص الرب يسوع له المجد، فرغم امتلاكه للحق الكامل إلا أنه لم يفرض فكره قط على الآخرين، بل أعطى دائماً لسامعيه حقهم الكامل في أن يسمعوه أو ينصرفوا عنه (يو ٦:٦٦، ٦٧). وهذا هو معنى نيره الهين وحمله الخفيف، فهو المعلم الوحيد الذى لا يعلِّمك إلا إذا أردت أنت أن تتعلم، ولا يتكلم إلا إذا أردت أن تسمع، إنه لا يقتحمك ولا يفرض فكره عليك، إذا أردت ألا تستمع إليه لن يغضب منك ويقاومك بل سيعطيك حقك الكامل في اختيار الفكر الذى تستمع إليه حتى وإن كان فكراً مضاداً له!! لا يمكنك أبداً أن تجد واحداً من تلاميذه في كل العصور اعتنق فكره عن خوف أو اضطرار، كل مَنْ تتلمذ عند قدميه واعتنق فكره فعل هذا بمحض اختياره الحر، هل رأيت قط معلماً مثل هذا ؟! إنه المعلم الوحيد الذى قال هذه العبارة العجيبة.:

مَنْ له أذنان للسمع فليسمع

لقد كرر الرب هذه العبارة كثيراً في تعاليمه وبعد كل رسالة من رسائله إلى الكنائس في سفر الرؤيا، ماذا يقصد الرب بأذن للسمع؟ إنه يقصد الاستعداد الداخلى للاستماع لفكر اللّه والرغبة في التعلُّم، وهذه الأذن ليست عند كل الناس، فكثيرون فقدوا الاستعداد الداخلى للتعلم والإصغاء لفكر اللّه بسبب امتلائهم بأفكارهم الخاصة واكتفائهم بحالتهم الراهنة حتى لم تعد عندهم مساحة لاستقبال فكر جديد، مثل هؤلاء لا يوجِّه الرب تعاليمه بل هو يتكلم لفئة أخرى مازالت تشعر بعدم الاكتفاء وتريد أن تستمع لفكر اللّه وتخضع له، أى أنه ـ له المجد ـ لا يفرض فكره على الجميع بل يقدمه فقط لَمنْ اختاروا بمحض إرادتهم أن يستمعوا إليه، إنه حقاً المعلم الوحيد الوديع ومتواضع القلب، وللحديث بقية.

قلنا إن روح الوداعة تجاه الإنسان تمنحه حقوقه كاملة، وأول هذه الحقوق هو حقه في الاختيار، واليوم نضيف أن من حقوق الإنسان أيضاً:

حق التعبير

الإنسان السوى ليس هو القادر فقط أن يختار بل هو القادر أيضاً أن يعبِّر عن هذا الاختيار، فقد يختار الإنسان موقفاً ما ولكنه يعجز عن المجاهرة بهذا الموقف لسبب أو لآخر، وهذا يؤدى إلى ازدواج في الشخصية: من الداخل يعتنق الإنسان موقفاً ومن الخارج يُظهر موقفاً آخر، وأن يجاهر الإنسان بموقف مخالف لما يعتقده داخلياً هو ما يسميه الكتاب:

الريـــاء

يستشرى هذا الداء في المجتمعات المقيِّدة للحريات، وكان هذا الداء موجوداً بكثرة في المجتمع اليهودى في أيام تجسد الرب له المجد، بدأ في القادة ثم انتشر إلى كل المجتمع مثلما تنتشر الخميرة لتخمِّر العجين كله، رغبة في الاستعلاء على الشعب كان الكتبة والفريسيون يخفون اختطافاً ودعارة بداخلهم ويظهرون براً وتقوى، وخوفاً من القادة ورغبة في رضاهم كان الشعب يخفى غضباً ورفضاً ويظهر حباً وخضوعاً، وخوفاً من بطش السلطة الرومانية كان المجتمع اليهودى كله يكتم ذلاً وهواناً ويُظهر طاعة وولاء!! كان الكل يرائى لأن أحداً لم يكن يمتلك الشجاعة ليعبِّر عن حقيقة موقفه، ولقد حذَّر الرب تلاميذه من سريان هذه الروح إليهم (لو ١٢ :١)، فهو الوحيد الذى داس روح الرياء في حياته وعاش بماثل ظاهره باطنه، وقاد تلاميذه إلى نفس الحياة.

روح الوداعة

وإذا كان القائد المزيف يفرح عندما يرائيه الناس ويظهرون له عكس ما يبطنون إلا أن روح الوداعة التى تجسدت في شخص الرب يسوع له المجد كانت ترفض هذا الرياء وتشجع الإنسان لكى يعبِّر عما بداخله أياً كان، فالشخص الوديع هو الذى تشعر في محضره بأنك قادر على التعبير عما بداخلك بدون خوف، هو الشخص الذى تسلك معه كما أنت في الحقيقة بدون مواربة إنه الشخص الذى يعطيك الإحساس بالأمان وبأنه يقبلك كما أنت وبأنه لا يقيم نفسه ديَّاناً لما في أعماقك، الشخص الوديع يصمت كثيراً لكى تتكلم أنت، ويتراجع أحياناً لكى تتقدم أنت!!

النور الذى يُنير كل إنسان

طالما ظل موقف الإنسان الداخلى خفياً غير معلن يكون من المستحيل التعامل معه أو علاجه أو حتى إدانته، لذلك كان أحد جوانب إرسالية الرب إلى العالم هو أن يُنير خفايا الإنسان ويشجعه على إظهار مواقفه الداخلية، وهذا ما قاله سمعان الشيخ بروح النبوة عن إرسالية الرب: «لتُعلن أفكار من قلوب كثيرة» (لو ٢:٣٥) أفكار ومواقف كثيرة ظلت مكتومة في القلوب لسنوات طويلة كان الرب مزمعاً أن يُخرجها للنور ويعلن عنها، ولقد فعل هذا بروح الوداعة التى تدفع مَنْ يتعامل معها لإظهار مكنونات قلبه.

كان بداخل القادة الدينيين موقف مضاد لصاحب الكرم (مت ٢١:٣٣) كانوا يأخذون ثمر الكرم لحسابهم وهو من حق اللّه وحده، ولكن هذا الموقف المضاد للّه كان مدفوناً تحت كم هائل من المظاهر الخارجية الخادعة، مظاهر التدين والتقوى والورع، وكانت إحدى مهام الرب له المجد هو إظهار حقيقة موقفهم من اللّه وإعلان أفكار البغضة الكامنة في قلوبهم، ومسلكه الوديع هو الذى شجَّعهم لكى يجاهروا ببغضتهم له، فقد كان مثل «النعجة الصامتة أمام جازِّيها»، وصمت النعجة يشجِّع جازِّيها لكى يمضى في عمله حتى النهاية!! لقد كان الرب بالنسبة لهم «علامة تُقاوم» على حد قول سمعان الشيخ (لو ٢:٣٤) أى أنه كان هدفاً تخرج عليه كل المقاومة الكامنة في قلب الإنسان تجاه اللّه!! وعندما ظهرت هذه المقاومة ومضت في طريقها حتى كملت في الصليب أصبح من الممكن التعامل معها وإدانتها، ولم تتأخر الدينونة كثيراً!!

وداعة الرب أعطت الفرصة لبطرس لكى ينكر، وليهوذا لكى يخون، وللتلاميذ لكى يهربوا، دون أن يخشى أحد منهم لوماً أو عقاباً!! اسمعه وهو يقول ليهوذا بوداعة «ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة» (يو ١٣:٢٧) الرب يدفعه لكى يعبِّر عن الخيانة الموجودة بداخله بأكثر سرعة!! فطالما ظلت الخيانة كامنة في قلب يهوذا وتتحرك ببطء في الخفاء لم يكن من الممكن إدانتها، فقط عندما ظهرت في العلن أمكن وضعها تحت الدينونة، ولم تتأخر الدينونة كثيراً!!

دعنى أنحنى بإجلال أمام روح الوداعة التى تتجسد فيك يا سيدى، فهى التى منحتنى الفرصة لكى أُظهر مكنونات قلبى أمامك دون خوف، وداعتك يا سيدى حرَّرتنى من عبودية الخوف وحفظتنى من السقوط في فخ الرياء!! (يتبع).

تكلمنا عن روح الوداعة التى تُعطى لكل ذى حق حقه، وقلنا إن لها ثلاثة اتجاهات: اتجاه اللَّه واتجاه الآخرين واتجاه النفس، ورأيناها تتحرك في اتجاه اللَّه فتعطيه حقه كاملاً في الطاعة والخضوع، وتتحرك في اتجاه الإنسان فتُعطيه حقه كاملاً في الاختيار والتعبير، ولم يبق لنا إلا أن نتكلم بإيجاز عن الاتجاه الثالث ألا وهو اتجاه النفس، فروح الوداعة عندما تمتلك نفساً ما تعطيها حقها كاملاً غير منقوص، فإذا اجتهدت النفس فمن حقها أن تُكافأ وإذا زرعت فمن حقها أن تفرح بالحصاد وإذا انتصرت فمن حقها أن تفتخر بالانتصار، الإنسان الوديع يُدرك حقوق نفسه ويمارسها دون أن يشعر بأية غضاضة في ذلك، ويخطىء مَنْ يظن أن الوداعة تعطى للَّه حقه على حساب حق النفس، أو أنها تمنح الآخرين حقوقهم وتبخس النفس حقها، كلا، فاللَّه الوديع هو أيضاً عادل ولا يكيل بمكيالين، ولذلك قال الرب له المجد «أعطوا تُعطوا، كيلاً جيداً ملبداً مهزوزاً فائضاً يعطون في أحضانكم، لأنه بنفس الكيل الذى به تكيلون يُكال لكم» (لو ٦:٣٨) أى أن النفس التى تعلّمت أن تُعطى للآخرين حقوقهم لابد أن يمنحها اللَّه حقوقها وبذات المكيال.

ولقد رأينا روح الوداعة في حياة الرب تمنح للنفس حقها كما منحت للَّه وللآخرين حقوقهم، فمن أشهر التعبيرات التى تصادفنا في أحاديث الرب تعبير

أنا هو !!

تكلم الرب كثيراً عن نفسه وأعطاها حقها كاملاً أمام الناس، ورغم أن كلام الإنسان عن نفسه عادة ما يُثير الاستنكار في نفوس السامعين إلا أننا نندهش عندما نجد كلام الرب عن نفسه لا يُثير بداخلنا هذا الإحساس بل على العكس نجد فيه شبعاً وارتواء، ما هو السبب؟ السبب هو أن الرب ينطق بالحق عن نفسه، فهو لا يمدح نفسه بما ليس فيه ولا يدَّعى قدرة ليست له ولا وضعاً لا يستحقه، كما أن الدافع وراء كلامه عن نفسه هو خير السامعين وليس مجد ذاته لأنه مجداً من الناس لم يقبل، روح الوداعة التى كان الرب يتكلم بها عن نفسه هى التى منحتنا القبول والإيمان بهذه الكلمات.

الوداعة في مقياس الإنسان هى أن يتكلم عن نفسه بالسوء ويسعى للتقليل من شأنها والتحقير من قدراتها، لكن العجيب أنك قد تستمع لشخص يُقلّل جداً من شأن نفسه ورغم ذلك تشعر بالنفور من كلماته، لماذا؟ لأن خلف الكلمات التى تُقلل من شأن الذات تكمن روح تهدف من

وراء هذه الكلمات عينها لتمجيد الذات وإضفاء صفة التواضع عليها!! هذه الوداعة مزيفة، واللّه لا يريدنا أن نتكلم بالسوء عن أنفسنا ولا أن نتكلم عنها بزهو بل أن نتكلم عنها ـ إذا لزم الأمر ـ بما هو حق في نظر اللّه.

أنا أفضل !!

اضطرت الظروف الرسول بولس في بعض الأحيان أن يتكلم عن نفسه (١كو ١٥: ١٠ ، ٢كو ١١ ، ١٢) فنجده يُعدد لنا الكثير من مجهوداته واحتماله وتعبه في سبيل الخدمة، حتى نجده يعقد مقارنة بينه وبين الآخرين فيقول «أنا أفضل» (٢كو ١١: ٢٣) ومع ذلك لا نشعر بأى انزعاج من كلامه لأنه يقول الحق عن نفسه (٢كو ١٢: ٦) والدافع من وراء كلامه ليس أن يأخذ مجداً من الناس بل أن يحمى الكنيسة التى تعب في تأسيسها من تشكيك المشككين في ارساليته (٢كو ١١: ٢ ، ٣) الوداعة التى في بولس لم تمنعه من الكلام عن نفسه لكنها حفظت كلامه في نطاق الحق.

التنازل عن الحق

إذا كانت الوداعة تُعطى للنفس حقها إلا أن النفس قد تختار إرادياً أن تتنازل عن هذا الحق لإنجاز عمل ما أو تتميم مشيئة للّه، مع بقاء الإدراك الكامل لهذه الحقوق وقدرة النفس أن تستعيدها في أى وقت، مثلما كان لبولس سلطان أن لا يشتغل بيديه بل يعيش من الإنجيل، وسلطان أن يجول بأخت زوجة مثل باقى الرسل، لكنه اختار أن لا يمارس هذا السلطان لكى لا يجعل عائقاً لإنجيل المسيح (١كو ٩: ١٢).

وفي الليلة الأخيرة نرى الرب يقوم عن العشاء ويغسل أرجل تلاميذه آخذاً مركز الخادم رغم إدراكه الداخلى لمركزه الحقيقى (يو ١٣: ٣) وبعدما غسل أرجلهم قال لهم «أنتم تدعوننى مُعلّماً وسيداً وحسناً تقولون لأنى أنا كذلك» (يو ١٣: ١٣). لقد قام بعمل الخادم وهو مدرك تماماً لمركزه كالسيد، وهذا هو الفرق بين «صغر النفس» و «وداعة النفس»!! فمَنْ يُعانى من «صغر النفس» قد يضع نفسه في مركز منخفض بسبب إحساس داخلى بأنه قليل الشأن، أما مَنْ يمتلك «وداعة النفس» فهو يضع نفسه في ذات المركز المنخفض لكن مع احتفاظه بإدراكه الداخلى بمركزه الحقيقى الذى له من اللّه، ويكون هذا التنازل إرادياً ومؤقتاً ومحدوداً بأداء عمل ما أو تتميم مشيئة للّه (يتبع).

بعدما رأينا الصورة الرمزية الأولى للروح القدس ألا وهى صورة الحمامة، وعرفنا أنها كانت مناسبة للتعبير عن روح الوداعة التى اصطبغت بها حياة رب المجد وخدمته وسط الناس، ننتقل اليوم للحديث عن صورة رمزية ثانية للروح القدس شاء أن يعلن نفسه بها في مرحلة أخرى من مراحل تعامله مع الإنسان، ألا وهى صورة

النـــــار

رغم أن يوحنا المعمدان هو الذى رأى الروح ينزل على المسيح في هيئة جسمية مثل حمامة لكنه عندما تنبأ عن طبيعة عمل الروح الذى سيُرسله المسيح ليعمل في وسط كنيسته قال إنه سيكون مقترناً بالنار (لو ٣:١٦) وبالفعل عندما حضر يوم الخمسين وجدنا الروح القدس يعلن عن حضوره في وسط الكنيسة بهيئة جسمية كألسنة منقسمة من نار استقرت على كل واحد منهم (أع ٢:٣) مما يشير إلى أن السمة الغالبة لعمل الروح القدس في الكنيسة ستختلف عن السمة الغالبة لعمله في حياة الرب له المجد، فإذا كانت الحمامة تشير إلى الوداعة فإن النار في الكتاب المقدس تشير دائماً إلى

القداســة

اقترنت النار بقداسة اللّه في أكثر من موضع، فعندما اشتعلت النار في العليقة صار الموضع مقدساً (خر ٣:٥) وعندما تجلّى الرب على جبل سيناء بنار صار الجبل مقدساً (خر ١٩:٢٣)... إلخ.

لكن ما هى القداسة؟ هى «الصلاح المؤثّر»!! «الصلاح» وحده هو أن يكون الشخص مملوءاً من الخير وخالياً من الشر، أما «الصلاح المؤثر» فهو أن يكون امتلاؤه من الخير وخلوه من الشر مؤثراً في الآخرين حتى أنه يجذب لنفسه الخير ويظهره ويدين الشر ويفضحه، إذا اقترن الصلاح الشخصى بهذا السلطان الخارجى نسميه «قداسة».

أن تكون مُحبَّاً فهذا صلاح أما أن تكون محبتك ذات سلطان حتى تفضح البغضة الموجودة في المحيطين بك وتدينها فهذه هى القداسة، أن لا تجد الخطية مكاناً لها في قلبك فهذا صلاح، أما أن لا تجد لها مكاناً في الوسط المحيط بك لأن طهارة قلبك تفضحها أولاً بأول فهذه هى القداسة!!

بين النار والقداسة

إن ما تفعله النار في الأشياء تفعله القداسة في الأشخاص، النار تمتحن الأشياء التى توضع فيها فتزكَّى وتنقِّى المعادن النفيسة وتفضح تفاهة المعادن الرخيصة وتحرق الخشب والعشب والقش وتحيلها رماداً، الأشياء لا تبقى كما هى قبل وبعد اجتيازها للنار، وأنت لا تستطيع أن تبقى كما أنت قبل وبعد تعرّضك لقداسة اللّه، أشياء سوف تتغير وأخرى ستنتهى وأخرى ستظهر ويزداد لمعانها!!

إذا أراد موسى أن يقترب من البقعة المقدسة فلابد أن يخلع نعليه، لابد أن يتخلص من الأجزاء الملامسة لهذه الأرض الملعونة، وإذا تواجد إشعياء في محضر «القدوس» فحالاً تظهر الأجزاء النجسة في حياته وتحرقها جمرة من على المذبح، ومَنْ يريد أن يصعد إلى جبل الرب ويقوم في موضع «قدسه» لابد أن يكون طاهر اليدين ونقى القلب (مز ٣:٢٤، ٤) لا يمكنك أن تتعامل مع قداسة اللّه وأنت تتستر على شر أو تخفى إثماً في القلب (مز ١٨:٦٦) إن قداسة اللّه ـ مثل النار ـ تمتحن كل شيء فتجتذب الخير وتظهره وتنقِّيه وتفضح الشر وتدينه وتعرِّيه.

بين الوداعة والقداسة

نستطيع الآن أن نرى أن روح الوداعة يبدو ـ ظاهرياً ـ مغايراً تماماً لروح القداسة، فروح الوداعة يعطى للإنسان الفرصة لكى يُظهر ما بداخله ويعبِّر عن مكنونات قلبه دون خوف، أما روح القداسة فيدين الشر وهو كامن في الأعماق ولا يمنحه فرصة للبقاء.

الوداعة لا تقتحم الإنسان بل تشجِّعه لكى يعبِّر بحرية عن إرادته، أما القداسة ـ إن تواجدت في محضرها ـ فهى تمتحن إرادتك الخفية وتظهرها إلى النور دون أن تملك لها دفعاً.

لكن الحقيقة أنه لا تناقض البتة بين اظهارات الروح الواحد، فكل من أوجه تعامله مع الإنسان هام وحتمى ولا غنى عنه، وهو في حكمته اختار أن يتعامل مع الإنسان بالوداعة أولاً من خلال حياة رب المجد وخدمته لكى يعطى للإنسان الفرصة ليفهم ويختار بإرادته أن يتوب ويرجع إلى اللّه، لكن لا يظن أحد أن تعامل الوداعة يمكن أن يستمر إلى الأبد، فلابد أن يواجه الإنسان يوماً قداسة اللّه وعندئذ لن تكون هناك فرصة بعد بل قضاء سريع، وللحديث بقية.

قلنا إن اللّه شاء في حكمته أن يتعامل مع الإنسان بروح الوداعة أولاً ثم بروح القداسة، والحق أن هذا هو أسلوب اللّه في التعامل مع الإنسان دائماً، التعليم أولاً ثم الامتحان، فرصة التوبة أولاً ثم القصاص، الزرع أولاً ثم الحصاد، وهذه هى حكمة اللّه وعدالته أيضاً، فعدالة اللّه لن تمتحن الإنسان بخصوص شىء لم يتعلمه مرة ومرات، ولن تقتص من خطية إلا بعد أن تمنحه نوراً كاشفاً على هذه الخطية ووقتاً كافياً للتوبة عنها، وعدالة اللّه لن تطلب أن تحصد ما لم تزرعه النعمة في قلب الإنسان، اللّه لا يطالب الإنسان بشىء من عندياته لأنه يعلم أن الإنسان لا يمتلك شيئاً إلا خطاياه، إن ما تزرعه روح الوداعة هو ما تحصده روح القداسة، وما تعلّمه لنا روح الوداعة هو ما تصعد به روح القداسة بخوراً طيباً أمام اللّه.

مثل الحنطة والزوان

وضّح لنا الرب في مثل الحنطة والزوان (مت ١٣ : ٢٤ ـ ٣٠) أن ملكوت السموات يمر دائماً بمرحلتين هما الزرع والحصاد، ولكل مرحلة سماتها الخاصة:

مرحلة الزرع تتميز بالاختلاط، فنجد الإنسان الصالح الذى زرع زرعاً جيداً في حقله كما نجد الإنسان العدو الذى زرع الزوان في وسط الحنطة، ونرى الحنطة التى نمت وأخرجت ثمراً جيداً كما نرى الزوان الذى نما أيضاً وأخذ شكل الحنطة ولكن بلا ثمر. أما مرحلة الحصاد فتتميز بالحسم والفصل، فالاختلاط لا يمكن أن يستمر بلا نهاية بل لابد أن يصير الفرق واضحاً بين الزرع الجيد الذى زرعه صاحب الحقل والزرع الردىء الذى زرعه الإنسان العدو، بين الحنطة النافعة والزوان الباطل.

مرحلة الزرع تتميز أيضاً بالوداعة والصبر، الوداعة التى أعطت الفرصة للإنسان العدو أن يزرع زرعه وسط الحنطة، الوداعة التى أعطت للحنطة الفرصة الكافية للنمو كما أعطت للزوان ذات الفرصة!! الوداعة التى تصبر على نبات مصيره إلى الحريق!! أما مرحلة الحصاد فتتميز بالقضاء والحكم، فلابد للحنطة أن تُجمع إلى المخازن أما الزوان فيُحرق بنار، وهذا ما قلناه عن عمل النار التى تمتحن طبيعة الأشياء فتحرق الرخيص وتزكّى الثمين.

يوحنا المعمدان

تنبأ يوحنا المعمدان عن عمل الروح في حياة الرب في هاتين المرحلتين، تنبأ عن مرحلة الزرع

عندما قال «هوذا حمل اللّه الذى يرفع خطية العالم» (يو ١:٢٩) فحبة الحنطة لابد أن تسقط في الأرض وتموت قبل أن تأتى بثمر كثير، وهذه المرحلة لابد أن تتميز بالوداعة والصبر (الحمل) وتنبأ أيضاً عن مرحلة الحصاد عندما قال عن الرب «الذى رفشه في يده وسينقى بيدره ويجمع قمحه إلى المخزن وأما التبن فيحرقه بنار لا تُطفأ» (مت ٣:١٢) هذه هى مرحلة الحصاد التى تتميز بالفصل والحكم.

ولكن يبدو أن طبيعة إرسالية يوحنا النارية جعلته يميل أكثر إلى مرحلة الحصاد في إرسالية الرب ويتطلع بشغف لحدوثها ويتخطّى ببصره مرحلة الزرع الطويلة والمضنية، ولذلك كاد يعثر في الرب عندما طال انتظاره لعمل النار وأرسل يسأل ما إذا كان الرب هو الآتى أم ينتظر آخر!! رغم أنه هو نفسه تنبأ عن مرحلة «الحَمَل» وشاهد بعينيه «الحمامة» لكنه كان يتعجل «النار»!!

ولقد أجابه الرب بأنه ما زال يعمل في مرحلة الزرع، فها هم العمى يبصرون والعرج يمشون والصم يسمعون، فلابد أن يفتح الرب عيون الناس قبل أن يحاكمهم على ظلمتهم، ولابد أن يشفى العُرج قبل أن يحاسبهم على عدم سعيهم نحوه، ولابد أن يفتح آذان الصم قبل أن يعاقبهم على عدم استماعهم لصوته!! الزرع أولاً ثم الحصاد!! صحيح أن مرحلة الزرع كانت شاقة وطويلة ومن الصعب احتمالها وصحيح أن الرب اجتازها بألم وهوان ودم ودموع، إلا أنها ضرورية لكى يكون الرب عادلاً في أحكامه.

عندما يأتى الحصاد !!

وعندما انتهى وقت الزرع ونضجت الحنطة التى انبثقت من موت حبة الحنطة الإلهية، وعندما حضر يوم الخمسين الذى كان عيداً للحصاد (تث ١٦:٩، ١٠)!! حضر الروح المبارك في هيئة جسمية مثل ألسنة من نار إيذاناً ببدء الحصاد والحكم، ورأيناه من خلال الكنيسة ـ جسد المسيح ـ يقلب المسكونة (عمل الرفش) (أع ١٧:٦) ورأينا الحنطة تتجمع معاً (أع ٤:٣٢) والزوان أيضاً يجتمع معاً (أع ٤:٢٧) ورأينا في الحنطة ثماراً صالحة: سلاماً ونعمة وشفاء، ورأينا كيف أن الزوان لا ثمر له سوى البغضة والحسد والمكايد، ولم تمضِ سوى سنوات حتى أحاط تيطس الرومانى بأورشليم وأحدق بها وهدمها وبنيها فيها، ثم أشعل فيها النار لتلتهم كومة التبن التى لم تتجاوب مع عمل النعمة وروح الوداعة، ولم تعرف زمان افتقادها!! (يتبـــع).

قلنا إن الرب تعامل مع الإنسان بروح الوداعة أولاً ثم بروح القداسة والقضاء ثانياً، زرع بنعمته في البداية ثم طالب بالحصاد أخيراً، والحق أن هذا هو أسلوب تعامل اللّٰه مع الإنسان منذ بدء التاريخ وحتى يومنا هذا، وأول ما نرى هذا الأسلوب نراه في:

جنة عـدن

بدأ اللّٰه تعامله مع آدم ـ ممثلاً للجنس البشرى ـ بنعمة غامرة وعطاء بلا حدود، قبل أن يخلقه صنع له كل ما يلزم للحياة السعيدة، خلق لأجله الأرض والسماء وملأها بالكائنات الحية من كل صنف ونوع، وغرس له جنة ووضعه فيها، وقبل أن يطالب اللّٰه بحقه أعطى للإنسان كل حقوقه ـ إن جاز لنا القول أن للإنسان حقوقاً ـ أعطاه حق التمتع والشبع بكل شجر الجنة، وحق التسلُّط والسيادة على كل الأرض، وحق الصحبة والمعونة إذ خلق له حواء معينة نظيره، بل أعطاه حق الاختيار عندما غرس في وسط الجنة شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر، وكان الوصول إليهما متاحاً وسهلاً، فاللّٰه لن يطلب الطاعة من إرادة مقيَّدة بل من إرادة حرة تملك أن تخطىء كما تملك أن تصيب!!

أليست هذه هى روح الوداعة التى تعطى للإنسان حقه كاملاً غير منقوص؟ أى حق للإنسان لم يأخذه بل أى خير لم ينَلْه بفيض ووفرة؟ عندما يطالب اللّٰه الإنسان بأى شىء بعد ذلك فهو يطالبه بما سبق وأعطاه له، وعندما ينتظر منه محبة فهى لن تكون سوى رد فعل زهيداً لمحبة اللّٰه الكاملة، وعندما يتوقع منه الطاعة فلأنها أقل مقابل للحرية والمجد اللذين كلَّله بهما.

بل إن روح الوداعة لم تكن تجاه آدم فحسب بل حتى تجاه الحية أحيل جميع حيوانات البرية!! لقد منحها الفرصة لكى تشتكى عليه ـ له المجد ـ وتنسب له ظلماً وتفسد بمكرها ذهن المرأة، أى وداعة تلك التى غلَّفت جنة عدن!! حتى إن مَنْ أراد أن يخطىء تجاه اللّٰه ما كان يجد أى مانع!! لكن لا شك أن بعد روح الوداعة هذه لابد أن يأتى اللّٰه بروح آخر.

روح القضاء

بعدما أخذ الإنسان فرصته الكاملة ومارس حقوقه كما أراد حان الوقت الذى ينبغى فيه أن يأخذ اللّٰه حقوقه ويمارس سلطانه، فوجدنا الرب الإله يأتى إلى الجنة بروح القضاء ويمارس سلطانه في إدانة

الخطية، ورأيناه يعاقب آدم وحواء والحية كلاً بحسب خطئه، ونلاحظ أن أحداً منهم لم يعترض على القضاء أو يطالب برأفة لأن كلاً منهم يعلم أنه أخذ فرصته كاملة وأنه كان كامل الإرادة وحر الاختيار عندما أخطأ، ونلاحظ أيضاً أن روح القضاء كان مقترناً بصورة رمزية معبِّرة وهى:

لهيب سيف متقلِّب

أول مرة نرى فيها النار في الكتاب المقدس نراها عندما أقام الرب الإله لهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة، وعندما يقترن اللهيب بالسيف في صورة رمزية واحدة فلكى يعبِّر لنا عن حق روحى مزدوج وهو أن قداسة اللّه (اللهيب) تطالب بالموت (السيف) قصاصاً لخطية الإنسان، لقد باتت قداسة اللّه وقضاؤه هما العقبة في طريق شجرة الحياة!! وأصبح الإنسان مفصولاً عن الحياة الأبدية ولا يجرؤ على الاقتراب منها، لأنه إذا أراد أحد أن يصل إلى الحياة فعليه أن يجتاز لهيب قداسة اللّه وسيف عدالته، ولأن «كل» ما في الإنسان يستوجب الموت بحسب قداسة اللّه، لأنه لا يسكن فيه شىء صالح، لذلك فالهلاك هو مصير كل مَنْ يقترب من سيف النار المتقلب، وإذا اجتاز لهيب قداسة اللّه فسوف يحترق «كله» ولن يبقى فيه ما يعبر إلى الحياة.

إلى أن جاء الشخص الوحيد الذى استطاع أن يجتاز لهيب السيف المتقلب ويبقى حياً، اشتعلت «نار» قداسة اللّه في قلبه حتى ذاب كالشمع في وسط أحشائه (مز ٢٢:١٤) واستيقظ «سيف» القضاء عليه فضربه إلى الموت (زك ١٣:٧) (فالسيف كان نائماً منذ خروج آدم من الجنة لأن أحداً لم يجرؤ على الاقتراب منه!) وبعدما اجتاز هذا الشخص المبارك في لهيب السيف المتقلب حاملاً لخطايانا ونائباً عنا وجدناه يقوم من الموت في ملء الحياة، لم تنته حياته في لهيب قداسة اللّه بل استطاعت أن توفى قصاص اللّه ومع ذلك تبقى حية، لأنه إن كان يحمل على كاهله خطايانا التى تستوجب الموت فقد كان يحمل أيضاً في داخله طبيعة طاهرة أرضت قلب الآب وسرَّته، لهذا السبب لم يكن ممكناً أن يُمسك من الموت.

وبعدما اجتاز الرب يسوع ـ له المجد ـ لهيب السيف المتقلب صار الطريق إلى شجرة الحياة مفتوحاً مرة أخرى لكل مَنْ ارتبط بشخص المسيح واستتر فيه (رؤ ٢:٧) وهؤلاء لن يؤذيهم السيف الملتهب لأنه «لا شىء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع» (رو ٨:١) لأنه ـ بالنسبة لهم فقط ـ قد انطفأت النار في دماء المخلِّص وانكسر السيف في جسده الكريم!! (يتبع).

تكلمنا عن روح القداسة والقضاء الذى اتخذ لنفسه النار رمزاً على مدى تاريخ شعب اللّٰه في العهدين القديم والجديد، ورأينا كيف أنه يتبع روح الوداعة في ترتيب تعاملات اللّٰه مع الإنسان، وأول ما رأينا هذا الترتيب رأيناه في جنة عدن، ورأينا أول صورة رمزية لروح القضاء في هيئة سيف النار المتقلّب الموضوع لحراسة طريق شجرة الحياة، إذ صارت قداسة اللّٰه وقضاؤه هما العقبة في طريق الإنسان إلى الحياة الأبدية.

ولقد استمر نفس هذا الترتيب في تعاملات اللّٰه مع

الشعب القديم

بدأ اللّٰه تعامله مع شعبه القديم ـ شعب إسرائيل ـ بروح النعمة والوداعة التى تعطى للإنسان حقوقه بسخاء وبلا مقابل، أعطاهم حقهم في أن يكونوا شعباً مستقلاً يملك حرية الإرادة والفعل بعد أن كانوا عبيداً، وأعطاهم حقهم في وطن بعد أن كانوا غرباء، وبعد أن أخذوا كل شيء أعطاهم اللّٰه الناموس وطالبهم بأن يسلكوا بموجب قداسته، وهكذا نرى مرة أخرى روح الوداعة تعطى للإنسان كل حقوقه قبل أن تطالبه روح القداسة بالمردود، فاللّٰه لم يكن ممكناً أن يعطى الناموس للشعب وهو بعد في أرض العبودية مسلوب الإرادة ومقيَّد الفعل، ولكن بعد أن أعطى اللّٰه للشعب حقه في حرية الإرادة والفعل أعطاه الناموس، فالناموس هو مطالب قداسة اللّٰه من الإنسان الذى استمتع بحريته، هو الحصاد الذى يبتغيه اللّٰه من أرض الإنسان التى عملت فيها النعمة كثيراً.

ولأن الناموس هو الممثل لمطالب قداسة الإنسان لذلك رأينا النار تميز وقت تسلّم موسى للوحى الشريعة «كان جبل سيناء كله يدخِّن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار» (خر ١٩:١٨).

الفشل .. مرة أخرى !!

لكن كما فشل الإنسان في جنة عدن في التجاوب مع نعمة اللّٰه، وفشل آدم في أن يعطى للّٰه حصاداً مشبعاً رغم الزرع الجيد الذى زرعه اللّٰه في حقله، نرى هنا أيضاً الشعب يفشل بعد كل إحسان اللّٰه ويُظهر عدم طاعة لمطالب قداسته، ويثبت أن طبيعة القلب البشرى تحب الزيغان والابتعاد عن اللّٰه. وأن ما فعله آدم في جنة عدن لم يكن فعلاً فردياً بقدر ما هو اتجاه جماعى للجنس البشرى كله.

وفشل الإنسان مرة أخرى كان متوقعاً ولذلك وضع اللّه في الناموس شريعة تشرح كيفية التعامل مع الخطية، شريعة ترسم أمامنا صورة رمزية أخرى لقداسة اللّه وموقفها من الإنسان، نقصد بها شريعة

ذبيحة الخطية

إذا أخطأ الإنسان كان يتقدم بذبيحته إلى الكاهن في باب خيمة الاجتماع أو مدخل الدار الخارجية في الهيكل، وكان يراها وهى تُذبح ثم تشتعل فيها النار على مذبح النحاس، ومرة أخرى نرى الموت يقترن بالنار في ذبيحة الخطية إشارة إلى قداسة اللّه التى تطالب بالموت لكل ما في باطن الإنسان، وكما رأينا سيف النار المتقلّب يقف في طريق الإنسان إلى شجرة الحياة نرى هنا مذبح النحاس يقف عقبة في طريق الإنسان إلى داخل خيمة الاجتماع، والمعنى واحد في الحالتين ألا وهو أن قداسة اللّه وقضاءه هما العقبة أمام الإنسان للتمتع بالشركة مع اللّه الموجود ـ بحسب الرمز ـ في داخل قدس الأقداس، كان مذبح النحاس هو أول ما يصادفه الإنسان المقترب من خيمة الاجتماع وكان في نفس الوقت آخر ما يجرؤ على الاقتراب منه!! كان الإنسان يتقدم بذبيحته إلى مذبح النحاس ثم يعود أدراجه مبتعداً عن الخيمة لأنه لم يكن مسموحاً للشعب أن يجتاز المذبح إلى ما داخل الخيمة.

قصد اللّه

كان قصد اللّه من هذه الصورة الرمزية المتكررة في نظام الذبائح هو أن يبقى ماثلاً في ذهن الشعب أن قداسة اللّه لا تقبل خطايا الإنسان ولا تتعايش معها ، وأن مَنْ يجرؤ على الاقتراب من محضر اللّه يُعرِّض نفسه للموت، وإن كان اللّه في رحمته سمح للإنسان أن يقدم ذبائح حيوانية بدلاً عن نفسه ويشاهدها وهى تموت وتشتعل فيها النار حتى الاحتراق، فقد كان هذا ليس لأن الذبائح يمكن أن ترفع الخطية لكن لكى يبقى هذا الحق حياً في ضمير الشعب كل يوم، ألا وهى أن مَنْ يريد التمتع بمحضر اللّه ونعمته ينبغى أن يجتاز نار حكمه وقداسسته، ولأن أحداً لم يستطع أن يجتاز هذه النار ويبقى حياً لذلك ظل طريق الأقداس مغلقاً حتى مجىء المخلِّص، وللحديث بقية

أول ما رأينا النار في الكتاب المقدس كانت تقف عقبة في طريق شجرة الحياة، ثم رأيناها ثانية في مدخل خيمة الاجتماع تقف عقبة أيضاً في الطريق إلى المقادس، كان اللّه يعلن بهذه الصور الرمزية أن قداسته وقضاءه على الخطية هما العقبة التى تحول دون وصول الإنسان إلى الشركة مع اللّه، ولكن الصورة الرمزية الموجودة في خيمة الاجتماع أضافت بُعداً جديداً لعمل النار، نراه في

مذبح البخور

لا نرى النار مرة واحدة في خيمة الاجتماع بل مرتين، حيث كان هناك مذبحان ينبغى أن تبقى النار مشتعلة فيهما باستمرار، الأول هو مذبح النحاس في مدخل خيمة الاجتماع وكانت تُقدم عليه الذبائح الدموية، ورأينا كيف أنه يشير إلى قداسة اللّه التى تنتقم من الشر، ولأن الذبائح الحيوانية ومقدميها لم يكن فيهم ما يرضى اللّه كانت النار تشتعل في الذبيحة ولا يبقى أمام مقدميها سوى أن يعودوا أدراجهم دون أن يطمعوا في مواصلة الاقتراب إلي ما داخل الخيمة.

لكن ما أعطى الأمل لمواصلة الدخول إلى الأقداس هو أن هناك مذبحاً آخر من الخشب المغشّى بالذهب كان موجوداً في داخل القدس أمام الحجاب المؤدى إلى قدس الأقداس مباشرة. وعلى هذا المذبح كانت تشتعل دائماً النار ولكن ليس لكى تحرق ذبيحة دموية بل لكى تذيب البخور العطر وتصعد به رائحة سرور أمام الرب دائماً.

عملان للنار

أى أن النار لم يكن لها عمل واحد في الخيمة بل عملان، كانت تحرق الذبائح الدموية للتكفير عن الخطية وكانت تحرق البخور لإصعاد رائحة طيبة أمام الرب، وهذا يُشير إلى العمل المزدوج لروح النار: إنه ينتقم من الخطية الموجودة في الإنسان وفي نفس الوقت يزكّى الصلاح الموجود في الإنسان ويرفعه أمام اللّه رائحة طيبة.

إن قداسة اللّه ليست سلبية فقط في عملها بل إيجابية أيضاً، أى أنها لا تنتقم من الشر فقط بل أيضاً تُزكى الخير، قداسة اللّه إذا ما صادفت صلاحاً فإنها تحيطه وتغذّيه وتزكّيه وترفعه إلى أمام عرش اللّه، إنها لا تحرق المعادن الرخيصة فحسب بل أيضاً ـ وفي نفس الوقت ـ تُلمِّع الذهب

وتنقّيه وترفع من قيمته، إنه ذات عمل الحصاد المقترن بروح النار في يوم الخمسين حيث يحترق القش بالنار بينما يتزكى القمح ويُجمع إلى المخازن.

وإذا كان مذبح النحاس محاطاً دائماً بالدم والرماد فإن مذبح البخور كان يقترن دائماً برائحة عطرية جميلة، وإذا كان مذبح النحاس في الخارج بعيداً عن الأقداس فإن مذبح البخور في داخل الأقداس مباشرة، إشارة إلى أن الخطية أبعدت الإنسان عن محضر اللّه بينما البر يقترب به من محضره القدوس.

إلى ماذا يشير مذبح البخور ؟

أراد اللّه أن يضيف بُعداً جديداً للصورة الرمزية التى رأيناها في سيف النار المتقلّب وفي مذبح النحاس، وهو أن هناك أملاً للإنسان للتقدم إلى داخل الأقداس، وذلك في حالة واحدة وهي وجود الإنسان الذى يستطيع أن يجتاز نار قداسة اللّه المنتقم من الشر وتظل حياته مرضية أمام اللّه ويصعد منها رائحة سرور لقلبه، إنسان إذا اشتعلت فيه نار قداسة اللّه لا تحرقه كله بل تجد فيه ذهباً يشبع قلب اللّه، في هذه الحالة فقط لن تتوقف مسيرة الإنسان عند مدخل الخيمة بل ستمتد إلى أمام العرش، إلى مذبح البخور!!

هوذا ابنى الحبيب الذى به سُررت !!

وظلت هذه الصورة الرمزية قائمة طالما ظلت غير متممة، وطالما لم يأتِ الإنسان الذى يمتلك القدرة على حمل الخطية واجتياز عقابها كاملاً وفي نفس الوقت يقدم حياة مشبعة لقلب الآب، إلى أن جاء رب المجد الذى جعل نفسه ذبيحة إثم (إش ٥٣ : ١٠) وفي نفس الوقت أدخل السرور لقلب الآب (مت ١٧:٣) وعندما اشتعلت فيه نار قداسة اللّه قدَّم حياة كاملة وموتاً كاملاً، حياة كاملة لسرور الآب وموتاً كاملاً للتكفير عن خطايانا، ولذلك لم تنته حياته الكريمة في نار الصليب بل تزكَّت ولمعت وقامت من بين الأموات وصعدت لكى تبقى ماثلة أمام الآب رائحة طيبة إلى أبد الدهور.

وبمجيء هذا المخلّص المبارك انتهى الرمز إلى الأبد، انشق الحجاب وانهدم الهيكل ومذابحه، وانتهى العمل بهذه الصور الرمزية بعدما صارت الحقيقة الكاملة في متناول أيدينا، وبعدما صار طريق الأقداس مفتوحاً أمام كل مَنْ يختبيء ويتحد بهذا المخلّص العظيم، وللحديث بقية.

رأينا النار في العهد القديم ترمز للروح القدس في عمله القضائى، روح القداسة الذى ينتقم من الشر ويزكّى الخير، روح الحصاد الذى يفصل بين الحنطة والزوان، الروح الذى قال عنه أشعياء: «روح القضاء وروح الإحراق» (إش ٤:٤).

ولقد بدأ هذا الرمز بسيف النار المتقلب في طريق شجرة الحياة، ثم استمر بعد ذلك من خلال مذبحى النحاس والذهب الموجودين في الهيكل حتى مجىء الرب وتكوين الكنيسة، وعندئذ كان لابد للرمز أن ينتهى لتحل محله الحقيقة الحية بكمالها وجمالها، لأن الروح لا يمكن أن يظل محصوراً في رمز مهما كان مقدساً، ولا يمكن أن يمارس عمله من خلال طقس مهما كان سامياً، لقد ظل الروح يشتاق إلى كيان حى يمكن أن يسكن فيه ويمارس من خلاله عمله القضائى في الأرض، كيان كبير متعدد الأطراف والمواهب يمكنه أن يحتوى كل إظهارات الروح بتعددها وتباينها، كيان طاهر يحتمل قداسته دون أن يحترق، كيان يقبل أن يبدأ القضاء فيه أولاً، لأن ابتداء القضاء دائماً من بيت اللّه (١بط ٤:١٧)، ولقد وجد الروح هذا الكيان في

الكنيســة

استطاع الرب يسوع من خلال حياته القصيرة، وروح الوداعة التى ملأته، ودمه الكريم الذى سفكه، وجسده الذى بذله، أن يصنع هذه الكنيسة، مجموعة من الناس صارت أنقياء بسبب الكلام الذى كلمهم به (يو ١٥:٣) مجموعة حَمَل هو خطاياهم واحترق بها على الصليب لكى يقدم للروح القدس «مسكناً» طاهراً مغفور الإثم يمكن أن يسكن فيه إلى الأبد (يو ١٤:١٦) ويمارس من خلاله عمله القضائى في العالم (يو ١٦:٨) كيان عجيب متعدد الأشكال والنوعيات يمكن للروح أن يفيض فيه بصور متعددة ويستخدمه في إرساليات متباينة الأشكال والأغراض، كيان رغم اتساعه وتباينه إلا أنه كيان واحد مترابط، له رأس واحد ويسكن فيه روح واحد (رو ١٢:٤ ـ ١٢).

الكنيسة هى مسكن الروح القدس وموطىء قدميه في هذا العالم الأثيم، العالم الذى لا يعرف روح القداسة ولا يستطيع أن يعرفه أو يقبله (يو ١٤:١٧) لأنه عالم اختار النجاسة منهجاً والخطية طريقاً وإبليس إلهاً ورئيساً، هذا العالم لا يعرف القداسة ولا يريد أن يعرفها، لذلك لا يوجد لروح القداسة مكان يمارس من خلاله عمله إلا داخل ومن خلال الكنيسة التى غسَّلها الرب يسوع بدمه، هذا هو الكيان الوحيد الذى يحتمل نار قداسة اللّه بل ويحبها!! الكنيسة هى الكيان الوحيد الذى

يقبل قضاء اللّه بل ويفرح به!! إنها العليقة الوحيدة التى يمكن أن تشتعل فيها نار قداسة اللّه دون أن تحرقها.

بين الرمز والحقيقة

لم يكن ممكناً أن يسكن الروح في الرمز ويمارس عمله في الطقس، فنار مذبح النحاس لم تستطع أن تنزع الخطية من قلوب مقدمى الذبائح، لذلك ظل الروح يشتاق إلى كيان حى يحرق فيه وبه الخطية من قلوب الناس فعلاً، واللّه لم يشبع قط من رائحة البخور المتصاعدة من نار مذبح الذهب، لذلك ظل الروح يشتهى كياناً بشرياً يستطيع أن يرفع منه وبه عبادة وسجوداً مشبعاً لقلب اللّه حقاً، ومَنْ قال أن سيف نار متقلب في يد كروبيم يمكن أن يعلن موقف اللّه من خطية الإنسان، بل ظل الروح ينتظر أن يسكن في كيان إنسانى يستطيع فيه وبه أن يبكت العالم على خطيته ويعلن عملياً أن الخطية هى التى فصلت بين الإنسان والحياة الأبدية.

ولقد استطاع الرب يسوع بروح الوداعة أن يبنى هذا الكيان الإنسانى البشرى الحى ليسكن فيه روح القداسة ويعلن فيه وبه قداسة اللّه وقضاءه، ولقد أعلن الروح المبارك عن قبوله ورضاه بالسكنى في هذا الكيان عندما حضر في يوم الخمسين وحلَّ على كل واحد من الموجودين في العلية في هيئة ألسنة منقسمة من نار، ليعلن أن الروح الذى سكن في هؤلاء هو ذات الروح الذى أشارت إليه نيران المذابح التى ظلت مشتعلة طوال العهد القديم، وأنه سيعمل فيهم وبهم ما عجزت عن فعله المذابح الرمزية والنيران الطقسية.

عطاء متبادل !!

إذا كان الآب قد هيَّأ للابن جسداً ليدخل به إلى العالم (عب ١٠:٥) فإن الابن قد هيَّأ مسكناً للروح القدس ليسكن فيه في العالم، وهذا المسكن هو الكنيسة، والروح القدس بدوره سيهيىء هذه الكنيسة لتكون عروساً للابن (رؤ ٢١:٢) ومن الناحية الأخرى سيهيئها لتكون مسكناً للّه الآب مع الناس (رؤ ٢١:٣)، إن المحبة والعطاء المتبادلين بين الأقانيم هما أعظم مما تدركه عقولنا، لكن ما ندركه فعلاً هو أنه طوبى لِمَنْ له نصيب في كنيسة اللّه الحقيقية، مسكن اللّه الأبدى مع الناس!! (يتبع).

قلنا إن روح النار أتى ليسكن في الكنيسة ليمارس فيها ومن خلالها عمله المبارك الذى كانت تشير إليه نيران مذابح العهد القديم، وقلنا إن هذا العمل مزدوج حيث إنه يزكّى الصلاح ويُظهره ـ مثل مذبح الذهب ـ ومن الناحية الأخرى يدين الشر ويحرقه كما كان يشير مذبح النحاس، وهذا العمل المزدوج هو ما نريد الآن أن نتتبَّعه عملياً في حياة الكنيسة الأولى:

اظهار الصلاح

عندما عاش رب المجد في وسط تلاميذه استطاع بروح الوداعة أن يزرع في أعماقهم بذور الصلاح الحقيقى، سواء بواسطة كلامه الثمين الذى أعلن فيه طبيعة البر الذى يريده اللّه، أو بحياته الكريمة التى ترجم فيها هذا البر عملياً ، لقد سمعوا منه عن الصلاة التى ترضى الآب ورأوه يصلى أمامهم هذه الصلاة، سمعوا منه عن المحبة للقريب وللعدو ورأوا فيه هذه المحبة متجسدة، سمعوا منه عن القداسة الحقيقية وليست المظهرية، ورأوا فيه هذه القداسة وهى تتعامل مع أشر الناس وأحط دركات المجتمع، قداسة لم تستطع نجاسة الإنسان أن تلوثها بل استطاعت هى أن تهزم النجاسة وتطلق كثيرين من قيودها أحراراً.

وهكذا انزرعت في قلوبهم بذور الصلاح الحقيقى، ما لم يفهموه بالأقوال فهموه من الأعمال، وما لم تشرحه لهم كلماته شرحته لهم لمساته، والقلوب التى لم تنفتح أمام إعلانه انفتحت أمام محبته وغفرانه، خلاصة القول إن الرب ترك قلوباً مملوءة بمعرفة الصلاح، وهم من ناحيتهم أحبوا هذا الصلاح الذى رأوه في سيدهم، وفي نوره اكتشفوا زيف الصلاح المظهرى الذى كان يملأ الساحة حولهم، ولم يعودوا يستطيعون العيش بمقاييس البر الإنسانى بل صارت قلوبهم تشتاق لأن تحيا على نفس مستوى البر الذى رأوه في يسوع.

..ولكن !!

كان هناك ما يمنع أن تنمو هذه البذار الثمينة وتتحول إلى حياة عملية، فمن الخارج كان المناخ الروحى المحيط بهم لا يسمح لهم بهذه الحياة، ومن الداخل كان ينقصهم الجرأة والقوة والسلطان لكى يعيشوا هذه الحياة ضد المناخ الروحى المضاد لهم، البذور الموجودة في قلوبهم لم يكن متوفراً

لها القدرة ولا الظروف المناسبة لكى تنمو وتزهر وتثمر، اللّه وحده كان يرى في أعماق هذه الجماعة كنزاً من بذور الصلاح الحقيقى ولكنه كنز غير مُعلن ولا يراه أحد من الناس، وهنا يأتى دور...

روح الحصاد

الروح الذى حضر في عيد الحصاد (يوم الخمسين) لكى يميز بين الحنطة والقش، فيجمع الحنطة إلى المخازن وأما القش فيحرقه بنار، وهو نفسه روح النار الذى يميز بين الذهب والزغل، فيلمِّع الذهب ويزكِّيه ويحرق الزغل، إنه الروح الذى اختار أن يأتى في هيئة ألسنة من نار في يوم عيد الحصاد لكى يعلن لنا طبيعة عمله في الكنيسة، لقد أتى لكى يساعد هذه البذور لكى تعيش وتمتد إلى أقصى مدى لها، أتى لكى يوفر لها المناخ المناسب ويمنحها القدرة للنمو، لم يأتِ روح يوم الخمسين لكى يزرع بذوراً جديدة فالزارع هو رب المجد يسوع، لكنه أتى لكى يعطى للبذور المدفونة إمكانية الظهور على وجه الأرض لكى يراها الجميع، أتى لكى يجسِّد الصلاح الذى زرعه الرب في قلوب أتباعه ويزكِّيه، أتى لكى يحوِّل المعرفة إلى أعمال علانية، أتى لكى يجعل هذه الجماعة الصغيرة تمارس سلوكاً يصعد بخوراً طيباً أمام الآب السماوى، الأمر الذى كانت تشير إليه نيران مذبح البخور لمئات السنين، فالآب لم تكن تشبعه رائحة البخور بل كان يشتاق إلى الصلاح الحقيقى الذى يخرج من أناس حقيقيين أحبوا إلههم بحق وعاشوا أمامه بقداسة حقيقية، وفي ملء الزمان استطاع الرب يسوع أن يغرس هذا الصلاح الحقيقى في قلوب أتباعه، وعندما أتى يوم الخمسين واشتعلت نار الروح في هذه القلوب فاحت رائحة الصلاح الحقيقى وغطَّت كل المسكونة.

الأساس والبنيان

بعبارات أخرى نقول إن تعاليم الرب لتلاميذه كانت الأساس الثابت على الصخر في قلوبهم، لكنه مدفون في العمق لا يراه أحد، ولقد أتى الروح لكى يبنى على هذا الأساس بنياناً عالياً يرتفع فوق الأرض ليراه الجميع، لم يأتِ الروح المبارك ليضع أساساً جديداً بل لكى يجعل الأساس الذى وضعه الرب معلناً وظاهراً في هيئة أعمال منظورة يراها العالم ويلمسها، ويشبع بها الآب ويرضى، هذا هو العمل الأول لروح النار: تزكية الصلاح وإعلانه (يتبع).

قلنا إن عمل روح النار في يوم الخمسين كان أولاً إظهار الصلاح الكامن في قلوب التلاميذ وتزكيته، واليوم نضيف أن الجانب الثانى لعمل الروح كان هو

فضح الإثم وإدانته

رغم احتفاظ الأمة اليهودية بشكلها الخارجى كأمة متدينة تعبد اللّه الواحد وتختلف في ذلك عن الأمم الوثنية الموغلة في الشر والنجاسة والمتعبدة لأصنام جامدة، إلا أن الحق كما يراه اللّه كان أن قلب هذه الأمة يموج بكل نجاسات الأمم الأخرى وشرها ، والفرق الوحيد هو أن الأمم الوثنية لا تجد غضاضة في المجاهرة بالشر لذلك فهى تمارسه علانية، أما الأمة اليهودية فهى تحاول الاحتفاظ بمظهرها المتدين لذلك فهى تمارس الشر في الخفاء!! وقبل أن يخرج الشر من القلب تغلّفه بأوراق برّاقة، وكلما شعرت بنتانة العظام العفنة المدفونة في القلب لجأت إلى تبييض الجدران الخارجية وتزيينها!! وكلما ازداد الإثم في داخل الصحفة والكأس اللتان يقدمونهما لاطعام الشعب سعوا لتنقية خارجهما وتلميعه!! وكلما نمت النجاسة في داخل القلب أصروا على تقديس وتعظيم أهداب ثيابهم!!

كان الإثم في وسط الأمم يُمارس علانية وكانت آلهة الخشب والحجر تُعبد في هياكل ضخمة واضحة للعيان، أما الأمة اليهودية فكانت تعبد نفس تلك الآلهة النجسة لكن في مخادع النفس الداخلية (حز ٨:١٢)!!

ولم يكن تمسكهم بالمظهر الحسن بدافع حبهم للنقاء أو رغبتهم في القداسة بل بدافع الاحتفاظ بنعرة التفوُّق على الآخرين والإحساس بالتميُّز الذى اكتسبوه في البداية عندما كان إله المجد يسكن في وسطهم، وبعد أن زال المجد وفارقهم الحضور الإلهى أبى القلب المتكبر الردىء إلا أن يظل يتعالى على الآخرين ويظل يفتخر بأنه أفضل منهم حتى بعد أن صار هذا الافتخار باطلاً وفارغاً بلا مضمون.

غياب روح النار

كيف يمكن أن يعيش المجتمع بهذا الشكل من الخداع والرياء؟ وكيف يمكن أن تختبىء النجاسة خلف هذه المظاهر المقدسة؟ كيف أمكن لهذا الشعب أن يجمع بين الإثم والاعتكاف؟! إن غياب روح النار هو الذى يعطى هذه الإمكانية!!

إن روح النار هو المسئول عن فضح الإثم وتعريته وإدانته، وفي حالة غياب هذا الروح المبارك يمكن للإثم أن يستتر في القلب لسنوات عديدة دون أن يراه أحد، بل يمكن أن يرسم لنفسه صورة خارجية جميلة تستأسر بإعجاب الناس وتقديسهم!! بل أحياناً قد يصل الأمر إلى حد أن صاحب القلب الأثيم قد يفقد إحساسه بإثمه ويصدق كذبه وينخدع بخداعه ويظن في نفسه القداسة فعلاً!!

.. وعندما يحضر روح النار !!

لكن عندما يحضر روح النار يصير اختباء الإثم مستحيلاً، فإزاء البر الحقيقى الذى أظهره الروح في الكنيسة ظهر أيضاً الخواء والشر الكامن في قلب الشعب اليهودى، وأمام بساطة ووداعة التلاميذ انفجر بركان كبرياء وقسوة اليهود، وفي مواجهة المحبة التى ملأت جنابات الكنيسة تدفقت أنهار البغضة والحسد من قلوب الكهنة ورؤساء الشعب، وفي مقابل صدق واستقامة التلاميذ رأينا الكهنة ينتهجون منهج الكذب والإلتواء، لم يعد في إمكانهم الاحتفاظ بمظهر التقوى والورع بل رأيناهم ينحدرون في سلوكهم إلى سلوك المجرمين وقطَّاع الطرق (أع ٢٣:١٥)!!

الحنطة والزوان

وهكذا بينما كان روح النار يضم كل يوم القديسين إلى جسد المسيح (أع ٢:٤٧) كان من الناحية الأخرى يفضح الخواء والشر المستتر في الأمة اليهودية، كان روح الحصاد يجمع الحنطة إلى المخازن وأيضاً يجمع الزوان تمهيداً لحرقه، وبينما ربطت المحبة الأخوية بين جموع المؤمنين بالمسيح كانت البغضة والحسد والخوف على المصالح المادية تجمع اليهود معاً ضد أتباع المسيح، وكان هذا التجمع إيذاناً باقتراب القضاء السريع.

وبالفعل لم تمض سنوات كثيرة حتى أرسل الرب نيرانه تلتهم كومة الزوان الكبيرة، انهار الهيكل ولم يبق فيه حجر على حجر لم يُنقض، واحترقت المدن وتهدمت المنازل وبنيها فيها، وبينما كان تيطس الرومانى هو الأداة المنفذة لهذا القضاء كان روح النار هو الحاصد الحقيقى، له كل المجد!! وللحديث بقية.

تكلمنا عن روح النار وعمله المزدوج في إظهار الصلاح وتزكيته وفضح الإثم وإدانته، وقبل أن نختتم الحديث عن هذه الصورة الرمزية من صور روح اللّه القدوس لابد أن نشير إلى أن

ابتداء القضاء من بيت اللّه

قلنا إن الروح فضح الإثم المستتر في الأمة اليهودية وقادها إلى الدينونة، والآن نريد أن نؤكد أن الروح النارى لا يفرِّق بين الخطية التى في الأمة اليهودية والخطية التى في داخل الكنيسة، بل إن ابتداء القضاء يكون دائماً من داخل البيت (١بط ٤:١٧) والرب الذى علَّمنا أن ننقِّى الداخل أولاً قبل الخارج لابد أنه يتبع نفس المنهج في تعامله مع كنيسته!! إن انضمامنا لشعب اللّه لا يجعلنا في مأمن من روح القضاء بل بالحرى يجعلنا في مقدمة القضاء!!

حنانيا وسفيرة

عندما انسكب الروح المبارك في يوم الخمسين أظهر الصلاح الذى سبق وزرعه رب المجد في نفوس أتباعه، فرأينا مبدأ «مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ» يظهر بوضوح في وسط الكنيسة حتى إن كل مَنْ كانت له أرض أو ممتلكات كان يبيعها ويأتى بأثمانها عند أقدام الرسل، وكان برنابا مثالاً لامعاً لروح العطاء هذه، ولكن في وسط هذا الجو المقدس بدأ الجسد يتحرك ورأينا أرض الإنسان تُنبت زواناً رديئاً يشبه من الخارج الحنطة لكن جوهره ليس العطاء بل الأخذ!! ويحمل في داخله سماً زعافاً إذا تُرك يسرى وسط الجماعة، سم الرياء والكذب والرغبة في لفت الانتباه وجذب المديح للذات!! بهذه الروح الرديئة باع حنانيا وسفيرة حقلاً وأتيا بجزء من ثمنه عند أقدام الرسل.

كان عملهما يبدو من الخارج مشابهاً لعمل برنابا والآخرين، لكن روح النار الساكن وسط الجماعة يمتحن جوهر الأعمال ويحكم عليها، ولذلك وجدناه يمارس عمله في فضح هذا الإثم وإدانته، وكان القضاء فورياً وحاسماً لمنع سريان هذا السم في وسط الجماعة، فسقط حنانيا وسفيره عند أقدام الرسل وحُملا ميتين، وهكذا كان الروح المبارك يمارس القضاء في داخل البيت قبل أن يقضى على الأمة العاصية في الخارج.

.. وكثيرون ضعفاء ومرضى ويرقدون !!

ونقرأ في رسالة بولس إلى أهل كورنثوس أن الروح يدين أعمال المؤمنين الخاطئة بضربات تتناسب في شدتها مع حجم الخطأ، تتدرج من الضعف إلى المرض إلى الموت بل وحتى إلى التسليم للشيطان!! لأننا إذا لم نتعلم كيف نحكم على أنفسنا وندين أخطاءها ونحفظها في حالة القداسة اللائقة بإلهنا القدوس فلابد أن يُحكم علينا ونؤدب من الرب لكى لا نُدان مع العالم.

خـــوف اللّه

إن روح القضاء هذه أنشأت مخافة للّه في نفوس المؤمنين (أع ٥:١١)، الخوف المقدس الناتج عن الإحساس الدائم بوجودنا في محضر «الديان»، الخوف من الخطأ أو الوقوع تحت القضاء، الخوف الذى يحفظ القلب طاهراً والذهن نقياً والسلوك مستقيماً، الخوف الذى ينبغى أن يُلازمنا في زمان غربتنا (١بط ١:١٧) ويدفعنا لتتميم خلاصنا (فى ٢:١٢).

هذا الخوف لم نعد نلاحظه في أيامنا هذه، تسرَّب من قلوبنا هذا الخوف المقدس وتسللت إلينا الاستهانة واللامبالاة، الاستخفاف بالمقدسات صار شائعاً وسط جماعات المؤمنين بشكل يدعو للفزع، وعندما نتلَّفت حولنا وننظر لأوضاع المؤمنين والكنائس ونُصدم بالخطايا المستترة والمعلنة تنتشر في كل مكان، ونُفاجأ بالذات المتضخمة وهى تجاهر بوجودها وتسلطها في داخل الكنيسة، وعندما نبحث عن قضاء إلهى يعيد الأمور إلى نصابها ولا نجد، عندئذ لابد أن تخرج منا صرخة:

أين أنت يا روح النار ؟!

لماذا تسكت ولا تتكلم؟ لماذا تترك الزوان ينمو في وسط الحنطة حتى أصبحنا نعيش في جو من الكذب والخداع والزيف، لم يعد هناك حد فاصل بين الحق والباطل، بين الثمين والرخيص، بين الذهب والتراب!!

لماذا تتركنا لأنفسنا ؟ لماذا تترك الذات تسود وتتحكم في وسط الكنيسة المدعو عليها اسم يسوع؟ هل هذا هو قضاؤك علينا ؟ إن أقسى قضاء يمكن أن نقاسيه هو أن تفارقنا وتتركنا لأنفسنا!! إن نار حضورك يا روح اللّه أفضل بما لا يُقاس من نار غيابك!! والخوف المقدس الذى تصنعه في القلب أعظم بما لا يُقاس من الخوف المظلم الذى أصبحنا نعيش فيه من بعد غيابك!! ليتك تعود تنسكب علينا يا روح النار والقضاء، إننا في أشد الحاجة إليك!! (يتبع).

بعدما تكلمنا عن صورة الحمامة التى تشير لروح الوداعة، وصورة النار التى تشير إلى روح القضاء والامتحان، نتقدم الآن بكل خشوع لنتأمل في صورة ثالثة من الصور الرمزية التى استخدمها الكتاب للإشارة إلى شخص الروح القدس، ألا وهى صورة :

المياه

« وفي اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً:
إن عطش أحد فليقبل إلىَّ ويشرب، مَنْ آمن بى كما قال الكتاب
تجرى من بطنه أنهار ماء حى، قال هذا عن الروح الذى
كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه » (يو ٧ : ٣٧ ـ ٣٩) .

عندما يتكلم رب المجد هنا عن شخص الروح القدس نراه يرسم أمامنا صورة رمزية رائعة، صورة المياه العذبة الباردة المنعشة المتدفقة كأنهار تروى الأراضى الجافة والنفوس العطشى، تحمل الحياة والنماء لكل مَنْ يقابلها، إنه يريد أن يشير لنا على عمل آخر من أعمال الروح المبارك، لقد عرفنا أنه روح الوداعة وروح القداسة لكنه أيضاً:

الروح المعطى الحياة !!

إن المياه هى المكون الأساسى لكل أنسجة الكائنات الحية، وكل الوظائف الحيوية في أجسادنا تعتمد على وجود المياه، بل أن كل خلية من خلايانا يمثِّل الماء مكونها الرئيسى، والدم الذى هو سائل الحياة لأجسادنا يتكون في معظمه من الماء، والإنسان في حاجة يومية ومستمرة للمياه لكى يعوض ما ينقص منها، فالجسد يستهلك كمية يومية من المياه لكى يقوم بوظائفه الحيوية، ويستهلك كمية أخرى لكى يُقاوم بعض العوامل الخارجية المضادة مثل شدة الحرارة والجفاف، أما إذا لم يتمكن الإنسان من تعويض ما ينقصه من المياه فإنه يشعر بالعطش، وهو شعور قاسٍ لا يستطيع الإنسان تجاهله أو تأجيله، شعور يدفع الإنسان لكى يسارع بالبحث عن الماء الذى يروى عطشه ويعيد له الانتعاش والحيوية، أما إذا لم يجد الماء متاحاً واستمر نقص المياه من الجسد فعندئذ تبدأ الخلايا تفقد حيويتها وقدرتها على القيام بوظائفها، ثم تبدأ تنكمش وتجف وتموت، وفي غضون أيام قليلة تُعد على أسابع اليد الواحدة يفقد الجسد الحياة ويموت!!

وأرواحنا تعطش أيضاً !!

لقد استخدم الرب هذه الصورة الرمزية لكى يعلن لنا حقيقة أن احتياج أرواحنا إلى اللّه يشبه احتياج أجسادنا للمياه، إن أرواحنا مأخوذة من اللّه ولا تحيا إلا به، وحضور اللّه في الحياة أمر حتمى إذا أردنا أن نكون أحياء روحياً، ولا يستطيع الإنسان أن يقوم بوظائفه الروحية بصورة حقيقية ولا يستطيع أن يقاوم عوامل الخطية والموت المحيطة به من كل جانب إلا من خلال شركة روحية يومية ومستمرة مع شخص اللّه نفسه، أما إذا غاب حضور اللّه عن الإنسان وانقطعت الشركة بينهما فإن الحياة الروحية تبدأ تجف وتضعف، وإذا استمر الحرمان فإن الإنسان يموت روحياً، وهذا ما كان اللّه يعنيه عندما قال لآدم «لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت» (تك ٢:١٧). إن موت آدم روحياً بعد الأكل من الشجرة لم يكن عقاباً على الخطية بقدر ما كان نتيجة طبيعية للخطية والانفصال عن اللّه، لقد أصاب الجفاف والموت روحه لأنها لا تستطيع أن تحيا بدون شركة مع اللّه.

كما يشتاق الإيل !!

استخدم كاتب المزمور نفس الصورة الرمزية عندما قال «كما يشتاق الإيل إلى جداول المياه هكذا تشتاق نفسى إليك يا اللّه، عطشت نفسى إلى اللّه، إلى اللّه الحى، متى أجيء وأتراءى قدام اللّه» (مز ٤٢:١، ٢).

لقد شعر في نفسه أنه مثل حيوان الإيل الذى يعيش في بيئة صحراوية جافة وقاسية وحارة تستهلك من جسده المياه بشكل دائم ومستمر، لذلك فهو في حاجة مستمرة ليس لقطرات من المياه بل لجداول من المياه!! إن ضرورات الحياة والمقاومة الروحية التى نلقاها في برية العالم تستهلك منا طاقة روحية هائلة، لذلك فنحن في حاجة يومية مستمرة ليس لكلمات أو مواعظ أو طقوس بل لشخص اللّه نفسه، ليس لقطرة مياه هنا أو هناك بل لأنهار ماء حى!! وهذا هو العمل الذى يقوم به روح المياه، الروح معطى الحياة، إن «اللّه» الذى يتكلم عنه كاتب المزمور هو نفسه «الروح» الذى يتكلم عنه رب المجد يسوع، كلاهما هو المياه لأرواحنا العطشى، وللحديث بقية.

روح اللّٰه هو معطى الحياة الذى به نحيا ونتحرك ونُوجد، والكتاب يستخدم صورة «المياه» لكى ينقل لنا أن الروح هو مصدر الحياة ليس للإنسان فقط بل لكل الخليقة أيضاً.

فى البدء

عندما كانت الأرض خربة وخالية يغطيها الغمر وتغطى الغمر ظلمة، رأينا روح الحياة يرفُّ على هذا الخراب ويبعث فيه الحياة، إنه الروح الذى يحمل مشيئة اللّٰه بالحياة إلى هذه الأرض الخربة، ومع رفرفة الروح توالت أوامر الإقامة والإحياء تصل إلى كل ركن من أركان الخليقة، انقشعت الظلمة وبدأ النور يُشرق، انحسر الغمر وبدأت الأرض تُثمر، وامتلأت الأرض الخربة بكائنات جميلة من كل نوع، وتزينت السماء المظلمة بأنوار من كل صنف، أنوار لليل وأنوار للنهار، ولا غرابة فحيثما يحلُّ روح الحياة يتحول القفر إلى جنة والظلام إلى نور والخراب إلى عمار والموت إلى حياة.

.. وبالخطية الموت !!

لكن هذه الصورة الجميلة لم تستمر طويلاً، فعندما دخلت الخطية إلى العالم فصلت الإنسان عن اللّٰه مصدر الحياة، وفتحت الباب لدخول أرواح الخراب والموت إلى العالم، أرواح مضادة في عملها لروح اللّٰه معطى الحياة، أرواح تنزع الحياة من روح الإنسان وتسبب موتها، أرواح تنزع الرطوبة من نفس الإنسان وتنشر الجفاف في أوصاله، تستهلك طاقته وتكدِّر صفوه، تُظلم سماءه وتُيبِّس أرضه، تجعله يعيش في قلق وانزعاج كل يوم حتى تنزل به إلى هاوية الموت الأبدى، أرواح كل مهمتها أن تسرق وتذبح وتهلك، أرواح تعمل تحت رئاسة مَنْ هو قتَّال للناس من البدء.

هذه الأرواح تتعدد أسماؤها لكن عملها واحد وهو سلب الحياة من كيان الإنسان، مثل روح الخوف الذى يكتنف الإنسان فيسلبه أمانه ويقيِّد خطوته، وروح الحزن الذى يُدمر المشاعر ويُحطم القلب، وأرواح الغضب والغيرة والحسد والطمع التى تخرِّب علاقة الإنسان مع الآخرين وتزرع بينهم الصراعات والحروب والخصومات، وأرواح الهوى والشهوة والنجاسة التى تفسد كرامة الإنسان وتحط به إلى مستوى الحيوانات غير العاقلة، وغيرها كثير من الأرواح التى لا نستطيع حصرها وكلها تقاوم عمل روح الحياة وتحاول الرجوع بالخليقة إلى وضع الخراب الأول.

محاولات فردية

في كل العصور القديمة كان هناك أفراد يستشعرون هذا الموت المحيط بهم من كل جانب ويشعرون بالعطش الشديد إلى روح المياه معطى الحياة، وكان لهم الإدراك الروحى الكافى والقدرة على السعى لشق هذه الظلمة المحيطة رجوعاً إلى اللّه، وكان الروح المبارك يتجاوب مع هذه المحاولات بلمسات وإعلانات متفرقة على مدار التاريخ البشرى، وكانت هذه الإعلانات بمثابة قطرات ماء منعشة في وسط صحراء قاحلة، عاشت على هذه القطرات أجيال كثيرة واستعانت بها على مقاومة أرواح الموت المحيطة بها في كل مكان، لكن هذه المحاولات ظلّت محاولات فردية ونادرة على مدار التاريخ الإنسانى الغارق في ظلمته الروحية، وظلت هذه الإعلانات مرتبطة بوجود أفراد أمناء يطلبون اللّه لأنفسهم ولشعوبهم، وبموت هؤلاء الأمناء كان الإعلان ينطفىء وتعود الظلمة تكتنف كل شىء، لأن طريق الأقداس لم يكن قد فُتح بعد، وروح المياه لا يمكن أن ينسكب بشكل عام ومعلن على هذه الأرض العاصية إلا بعد إتمام الفداء.

أنا عطشان !!

وفي ملء الزمان أتى الفادى المبارك الذى حمل خطايانا في جسده على الخشبة، وعندئذ أحاطته جحافل الجحيم، وبدأت الرطوبة تتسرب من كيانه الروحى ويزحف الجفاف إلى قلبه الجريح، حتى إنه قال بروح النبوة «يبست مثل شقفة قوتى ولصق لسانى بحنكى» وأيضاً «يبس حلقى، كلّت عيناى من انتظار إلهى» (مز ٢٢:١٥ ، ٦٩:٣). هذه اليبوسة هى التعبير المجازى المعبِّر عن آلام المسيح الشديدة في لحظات الصليب، كان ينبغى أن يعبر نفس أرضنا ويحمل نفس ذنبنا ويلقى نفس قصاصنا ، حتى إن الإحساس الوحيد الذى جاهر به الرب على الصليب لم يكن إحساسه بالألم أو الحزن أو الظلم بل العطش!! لقد عطش لكى نرتوى نحن، يبست قوته لكى تتفجر ينابيع القوة في كياننا نحن، لقد اجتاز مواضع جفافنا وموتنا لكى يرفعنا إلى موضع حياته ومجده، له كل المجد والسجود إلى الأبد.

أخى، هل لك نصيب في هذا الارتواء الإلهى؟ (يتبع).

روح اللَّه يعطى الحياة للإنسان كما يعطى الماء الحياة لكل كائن حى، ولقد أُستخدمت الصورة الرمزية للمياه عدة مرات في الكتاب المقدس، وفي إحدى هذه المرات قارن الرب مقارنة بليغة بين استقاء المياه من

الينبوع والبئر

«شعبى عمل شرين: تركونى أنا ينبوع المياه الحية لينقروا
لأنفسهم أباراً أباراً مشققة لا تضبط ماء » (أر ٢ : ١٣)

الينبوع والبئر كانا من وسائل استقاء الماء في أرض إسرائيل القديمة، وكان الفرق بينهما كبيراً، فالينبوع هو مياه جارية (حية) تنفجِّر من عمق الأرض بشكل تلقائى وبدون مجهود من الإنسان. وعادة تكون مياه الينبوع نقية لأنها تنبع من أعماق سحيقة في باطن الأرض، أما البئر فهى حفرة عميقة يصنعها الإنسان في الأرض لكى تتخزن فيها مياه الأمطار في موسم الأمطار، أى أن مياه البئر كانت مياه راكدة وليست جارية، مما يجعلها مُعرضة للتلوث بكافة أنواعه، كما أنها كانت مياه موسمية وليست دائمة، فكانت البئر تمتلىء في موسم الأمطار ثم تجف مع بداية الصيف وحتى موسم الأمطار التالى، وأردأ أنواع الآبار هو الآبار ذات الجدران المشققة لأنها لا تستطيع الاحتفاظ بالمياه لفترات طويلة بل سرعان ما تتسرب منها وتضيع.

أنا ... ينبوع المياه الحية !!

وفي هذا الجزء من سفر أرميا يشير الرب إلى نفسه باعتباره مصدر المياه المتدفقة باستمرار لشبع وارتواء شعبه، لكن لدهشتنا الشديدة نجد الشعب يتحول عن الرب ويبحث لنفسه عن مصادر أخرى للارتواء، يشير إليها الرب هنا باعتبارها آباراً مشققة لا تحتفظ بالمياه، فالإنسان منذ القديم يسعى وراء شهوات الجسد ظناً منه أنها تعطيه ارتواء وسعادة، فالمال والجنس والسلطة كانوا ومازالوا آلهة أخرى يسجد لها الإنسان ويخدمها لعلها تعطيه لحظات من المتعة والراحة، وفي سبيله لهذا يترك الإله الحقيقى وحده الذى يملك فعلاً الارتواء الحقيقى والمياه الحية، ودائماً يكتشف الإنسان ـ عادة بعد فوات الأوان ـ أن هذه الآلهة الغريبة ليست سوى آباراً مشققة لا تضبط ماء، ولنا في هذه التشبيهات تعاليم مفيدة:

أوجه المقارنة

* بين الداخلى والخارجى : روح الرب يسكن في أعماق المؤمن، وبالتالى يكون ارتواء المؤمن داخلى عميق غير خاضع لأية ظروف خارجية ولا تؤثر فيه العوامل المضادة، مما يجعل المؤمن سيداً للظروف وليس عبداً لها، لأنه حتى عندما تتكالب عليه الضيقات وتكثر همومه يجد «في داخله» تعزيات الرب تُلذذ نفسه (مز ٩٤:١٩).

أما الارتواء الذي يلوِّح به العالم للإنسان فهو من مصادر خارجية، يظن الإنسان أنه إذا حصل على هذا أو ذاك فسيصبح سعيداً. لذلك تجده يضع حياته كلها في سعى متواصل للحصول علي مصادر السعادة هذه، وسرعان ما يجد نفسه عبداً ممتلك لا يملك من أمر نفسه شيئاً بعدما قيَّدته شهوات العالم بقيودها التى لا ترحم، والإنسان دائماً عبد لَمَنْ يعطيه السعادة، وهكذا يصير الإنسان عبداً للظروف الخارجية.

* بين الدائم والمؤقت : روح الرب دائم الوجود في قلب المؤمن وتعاملاته تستمر في الليل والنهار، في الصحة والمرض، في القوة والضعف، بل حتى في أوقات السقوط لا يتخلى عنه بل يُبكته حتى يعيده إلى صوابه، إن مياهه دائمة الجريان أو بحسب تعبير الكتاب «مياه حية» تنبع إلى حياة أبدية (يو ٤:١٤).

أما أفراح العالم فإلى لحظة (أى ٢٠:٥) عندما يحصل عليها الإنسان يحاول أن يحتفظ بها لأطول وقت ممكن لكنه يكتشف أنها تتسرب من بين أصابعه ولا تترك في يده إلا الريح، قلب الإنسان المشقق لا يستطيع أن يحتفظ بفرح العالم إلا للحظات يعقبها الفراغ والجفاف مرة أخرى.

* بين السهل والصعب : فيض الروح ينبع في قلب المؤمن بدون تدخل من الذات الإنسانية، لأنه مؤسس على محبة اللّه ونعمته المجانية، أما أفراح العالم فهى تستهلك طاقة الإنسان كلها للحصول عليها ومحاولة الاحتفاظ بها.

* بين النقى والملوث : تعزيات الروح دائماً نقية وطاهرة ومملوءة أثماراً صالحة، أما أفراح العالم فدائماً معرضة للتلويث والتعكير، مملوءة أنانية وطمع ونجاسة.

لقد كان الرب محقاً إذاً عندما طلب من السموات أن تبهت وتقشعر وتتحير جداً لأن شعب الرب ترك الداخلى إلى الخارجى وترك الدائم إلى المؤقت وترك السهل إلي الصعب وترك النقى إلى الملوث!! ما أردأ قلب الإنسان وما أغباه!! أخى، ما هو مصدر ارتوائك؟ الرب أم العالم؟!! (يتبع).

تكلم الكتـاب عن الروح القـدس في (إر ٢ :١٣) باعـتـبـاره ينبـوع الماء الحى، إشـارة إلى أن الارتواء الذى يعطيه الروح للإنسان هو ارتواء من الداخل وليس من الخارج، وارتواء دائم في كل الظروف وليس مؤقتاً، كما أنه أنه ارتواء سهل لا يحتاج إلى مجهودات الإنسان العقيمة، وارتواء نقى غير مشوب بعكارة الأرض.

واليوم سنضيف من أقوال الرب في إنجيل يوحنا أبعاداً جديدة لهذا الارتواء المبارك، فهو أيضاً

ارتواء أبدى

في حديث الرب مع المرأة السـامرية قـال لهـا: «كل مَنْ يشرب من الماء الذى أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد بل الماء الذى أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية» وهنا يشير الرب مرة أخرى إلى عطية الروح باعتبارها ينبوع ماء ولكنه يضيف أن هذا البنيوع ينبع إلى مدى أبدى، والأبدية لا تعنى فقط المدى الزمنى غير المحدود بل تعنى أيضاً العمق غير المحدود، فالحياة الأبدية لا تعنى فقط الحياة إلى مدى زمنى غير محدود لأن الأشرار سيظلون أيضاً في جهنم إلى مدى زمنى غير محدود، لكن الحياة الأبدية تعنى الحياة التى تربط بين أعماق الإنسان وأعماق اللَّه غير المحدود، إنها شركة مع اللَّه غير محدودة في عمقها وفي مداها، لذلك نحن نتمتع بالحياة «الأبدية» ونحن بعد على هذه الأرض المؤقتة.

لقد جعل اللَّه الأبدية في قلب الإنسان (جا ٣ :١١) وهذا يعنى أن الإنسان بداخله جوع للأمور الأبدية، الحيوان يكفيه من الحياة أن يأكل ويشرب أما الإنسان فلا يستطيع أن يحيا بالخبز وحده، نسمة اللَّه التى في داخله تجعله يتوق إلى شركة مع اللَّه لا حدود لمداها، شركة تصل إلى كل أعماقه الأبدية وتشبعها، الإنسان يحتاج إلى حب أبدى (إر ٣١ :٣) وفرح أبدى (إش ٦١ :٧) وحماية أبدية (تث ٣٣ :٢٧)... إلخ.

لذلك فكل المشاعر الإنسانية السطحية والعلاقات الاجتماعية الخارجية لا تستطيع أن تشبع العمق الأبدى في قلب الإنسان، وهذا ما أراد الرب أن يقوله للسامرية التى اختبرت علاقات اجتماعية متعددة ومشاعر عاطفية متنوعة ومع ذلك ظل عطش قلبها كما هو، لم يستطع أى إنسان أن يملأ قلبها الأبدى، الأمر الذى لا يستطيعه سوى روح المياه المبارك لأنه ينبع إلى العمق الأبدى في قلب الإنسان.

هـــل اختـبرت هـذا الارتـــوا ء الأبـــدى أم مـازلت تأمـل خـيراً في مـيــاه كــل مَنْ يشـربهـــا يعطش أيضـاً ؟!

ارتـواء فـائـض

في اليـوم الأخيـر العظيم من العيد نادى يسـوع قائلاً «إن عطش أحد فليـقبل إلىَّ ويشرب، مَنْ آمن بى تجرى من بطنه أنهـار مـا ء حى » ويؤكـد لنا يوحنا أن الرب قـال هذا عن الروح الذى كـان المؤمنون مزمعين أن يقبلوه.

وفي هذا الجزء يضيف الرب أن ارتوا ء الروح ليـس ذاتياً محدوداً باحتيـاج الإنسان بل هو فائض يملأ الكيـان ثم يجرى أنـهاراً لارتوا ء الآخريـن أيضـاً ، ولأن طبـيعـة الروح هى المحبة والعطا ء لذلك بمجرد أن يجد لنفسه أرضاً في قلب إنسان ما نجده يفيض منه إلى كل المحيطين به، انظر إلى الرب يسوع أثنا ء حياته على الأرض ستجد أن كل مَنْ اقترب منه نال الشفا ء، ذلك لأن الروح الذى فيه من طبعه الفيض والانتـشار بل انظر إلى التلاميـذ بعد يوم الخمسين سـتـجد نفس الميل للفيض والانتشار حتى أن ظل بطرس ومآزر بولس نشروا الشفا ء في كل مكان!!

لا نجد هذا الميل والانتـشـار في متع العـالم وملذاتـه التى تتميـز دائماً بالأنانيـة والذاتيـة، وفي سبيـل حصولنا عليـها نضطر أحيـاناً أن ندوس على الآخرين، وإذا حصلنا عليـها لا نسـتطيع أن نقتسمها مع الآخرين لأنها محدودة وإذا توزعت على أكثر من فرد نقصت قيـمتها ، أما عطيـة الروح فهى العطية الوحيدة التى إذا تشاركنا فيها مع الآخرين ازدادت، ألم يقل الكتاب: «المروى هو أيضـاً يُروى» (أم ١١: ٢٥) كلمـا أعطيت الآخـرين من الميـاه التى عندك سـتجد أنـهـا تزداد وتفيض كالأنهار، أما إذا أردنا أن نحصرها في ذواتنا سنجد هذا الفيض يتوقف!! ولنا في قصة الأرملة ودهنة الزيت مثلاً (٢مل ٤) كلما كانت هناك أوانى فـارغة كلما فاضت دهنة الزيت وملأت كل الأوانى، وعندما لم يعد هناك المزيد من الأوانى الفارغة توقف الفيض!!

هل يشعر المحيطون بك بهذا الفيض من داخلك ؟! (يتبـع).

قلنا عن روح المياه المبارك أنه يقدم للإنسان ارتواءً داخلياً ودائماً وسهلاً ونقياً، ارتواءً فائضاً في اتساعه وأبدياً في عمقه ومداه، ونختتم اليوم حديثنا عن الصورة الرمزية للمياه بتأملنا في بعض الأجزاء الكتابية الخاصة بهذه الصورة.

أرواح الجفاف

«إذا خرج الروح النجس من الإنسان يجتاز
في أماكن ليس فيها ماء يطلب راحة» (مت ١٢:٤٣)

أرواح الشر تبحث عن راحتها في الأماكن التى ليس فيها ماء، أى التى ليس فيها عمل للروح القدس، لأن عملها معاكس لعمل روح المياه المبارك، إنها تعمل لتجفيف المنابع في حياة الإنسان مما يؤدى إلى العطش واليبوسة ومن ثم إلى الموت النفسى والروحى، إن كل شيء تلمسه أرواح الشر يتحول إلى الجفاف واليبوسة، العلاقات الاجتماعية التى من المفترض أن تكون مصدراً لراحة الإنسان تتحول إلى مصدر للضيق والحزن، الممتلكات المادية التى من المفترض أن تمنح الإنسان السعادة تتحول تحت سطوة أرواح الشر إلى مصدر للكآبة والخوف والقلق... وهكذا تتحول حياة الإنسان إلى أرض جدباء ليس فيها ماء.

ترك لوط إبراهيم مع خيمته المتواضعة ومذبحه المقدس واختار أن يسكن في أرض خصبة كجنة الرب بحثاً عن حياة أكثر راحة وارتواء، لكن بسبب أرواح الشر التى سادت وامتلكت شعوب تلك المنطقة تحولت هذه الأرض عينها إلى سبب للألم والعذاب والخسارة طوال حياة لوط، وبدلاً من أن تكون «جنة» أصبحت «جحيماً» يحرق بيته وأولاده وكرامته وكل شيء، بينما كان إبراهيم في هذا الوقت ينعم بالشبع والإرتواء الداخلى تحت سلطان روح المياه المبارك.

الروح النجس إذا تمكَّن من الإنسان يجعله «ييبس» (مر ٩:١٨) حتى عندما أحاطت أرواح الشر بشخص الرب له كل المجد على الصليب حوَّلت رطوبته إلى يبوسة القيظ (مز ٣٢:٤) وييَّست مثل شقفة قوته (مز ٢٢:١٥). ويل لِمَنْ يقع تحت سلطان أرواح الشر هذه، إنه حقاً بائس ومسكين.

دعوة للإرتواء

« البائسون والمساكين طالبون ماء ولا يوجد، لسانهم من العطش قد يبس
، أنا الرب أستجيب لهم... أفتح على الهضاب أنهاراً وفي وسط البقاع ينابيع،
أجعل القفر أجمة ماء والأرض اليابسة مفاجر مياه » (إش ٤١ : ١٧ ، ١٨).

لمثل هؤلاء المساكين الذين وقعوا تحت سلطان أرواح الشر يقدم الرب هنا دعوة للإرتواء، إذا وضعوا حياتهم تحت سلطان روح اللّه المبارك فهو يحوِّل الأرض اليابسة إلى جداول مياه وواحة إرتواء، ويطرد أرواح الشر من الحياة لأنها لا تستطيع أن تعيش حيث توجد المياه !!

أحياناً نظن أننا لو لم نمر بظروفنا القاسية الحاضرة لكان وضعنا أفضل وراحتنا أكثر، لو لم نجتاز الهضاب الوعرة والبرية القاحلة لكان هذا أفضل، لكن الرب هنا يقدم لنا وعداً أن هذه الهضاب نفسها ستحمل لنا الإرتواء وهذه البرية ذاتها ستجرى فيها الأنهار، هذا هو سلطان روح اللّه المبارك إذا وضعنا أمامه حياتنا بكل ما فيها من آلام وجفاف ويبوسة.

كانت مريم ومرثا تظنان أن الأفضل لو لم يمت أخاهما، لكن الرب حوَّل بحضوره هذا الموت عينه إلى مادة للفرح والتعزية والابتهاج، وظن إبراهيم أن تقدمه في السن هو شيء سيىء لكن الرب حوَّل هذا الأمر عينه إلى مادة للمعجزة التى خلدت على مدار السنين، وظن يوسف أن عبوديته وسجنه هى مرحلة جدباء في حياته لكنه اكتشف أن روح اللّه قادر أن يستخدم هذه المرحلة عينها لنضوجه ومجده!!

هل تقبل دعوة الرب للإرتواء؟ هل تضع حياتك تحت سلطان روح اللّه القدوس؟

تحذير !!

«يا أبى إبراهيم ، ارحمنى وأرسل لعازر ليبلَّ طرف اصبعه
بماء ويبرد لسانى لأنى معذب في هذا اللهيب» (لو ١٦ : ٢٤)

أما كل مَنْ لا يقبل دعوة الرب للإرتواء ويظل واضعاً حياته تحت سلطان أرواح الشر فلابد أن يأتى يوماً يشتهى فيه قطرة ماء واحدة ولا يجد!! سيشتهى لمسة واحدة أو كلمة واحدة من تلك التى يستهين بها اليوم ولكن الوقت سيكون قد فات، لذلك ليتك تفتدى الوقت وتضع حياتك الآن في يد روح المياه المبارك قبل فوات الأوان (يتبع).

بعدما تحدثنا عن الصورة الرمزية للحمامة والتى تشير إلى روح الوداعة، وعن الصورة الرمزية للنار والتى تشير إلى روح الامتحان والقضاء، وعن الصورة الرمزية للمياه والتى تشير إلى روح الارتواء، نبدأ اليوم حديثنا عن صورة رمزية رابعة لروح اللَّه، ألا وهى صورة :

الريـح

في حديث الرب مع نيقوديموس شبَّه عمل الروح بعمل الريح:

« الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لا تعلم من أين تأتى
ولا إلى أين تذهب ، هكذا كل مَنْ وُلد من الروح » (يو ٣ : ٨)

ولقد أكَّد الروح هذا التشبيه عندما اختار أن يحضر في يوم الخمسين مصحوباً من السماء «كما من هبوب ريح عاصفة» (أع ٢:٢) مما يشير إلى أن اللَّه يريد أن يقرِّب لأذهاننا جانباً آخر من جوانب عمل روح اللَّه المتعددة، وهذا الجانب هو:

العمل الخفى

الريح خفية لا نستطيع أن نراها ، لأن العين الإنسانية تعجز عن ملاحظة جزئيات الهواء شديدة الدقة، كما أنها لا تستطيع أن ترى مناطق الضغط الجوى التى تتحكم في مسار الريح، كل ما نستطيع أن نراه هو تأثير الريح على الأجسام المرئية، إننا نعرف أن هناك ريح عندما نرى الأغصان تتمايل والأوراق تتطاير والطواحين تدور.

وهذا ما أراد الرب أن يقوله عن عمل الروح، إنه من المستحيل على الإنسان أن يدرك تماماً طبيعة عمل الروح أو يعرف على وجه اليقين الدافع المحرك له أو الهدف الذى يرمى إليه، كل ما يستطيعه الإنسان هو معرفة أن الروح يعمل إذا ما رأى تأثيراته في داخل النفس الإنسانية، إذا ما رأينا النفس تتمايل وتسقط تحت تأثير تبكيت الروح، أو رأيناها تطير وتحلّق في الآفاق الروحية متحررة من جاذبية الجسد والعالم تحت تأثير تعزية الروح، أو رأيناها تعمل أعمالاً روحية نقية وخالية من شوائب الذات الإنسانية الرديئة تحت تأثير مواهب الروح، فعندئذ فقط نعرف أن الروح يعمل!!

قصور إنسانى وليس غموض إلهى !!

إن سر خفاء عمل الروح ليس ميل إلهنا للغموض والاختفاء، حاشا، بل السبب هو قصور الروح الإنسانية عن فهم وملاحظة دقائق عمل روح اللّه المبارك، إلهنا يريدنا أن نعرف كل شيء (يو ١٥:١٥) لكن المشكلة هى أننا لا نستطيع أن نفهم أو نقبل كل شيء (يو ١٦:١٢) ولهذا يضطر الرب أحياناً كثيرة للتعامل معنا بشكل خفى وغامض وغير مفهوم.

لقد تمنَّى الرب أن يشرح لتلاميذه قبل الصليب كيفية سير الأحداث القادمة لكى يحميهم من الخوف والانزعاج، لكن القصور كان في قدرة التلاميذ على الاحتمال، لذلك اضطر الرب أن يتركهم في مهب «الريح» حيث تجرفهم الأحداث وهم لا يفهمون شيئاً، ليس لأنه أراد أن يخفى عنهم عمله بل لأنهم بطيئو القلوب في الإيمان.

نفس المفهوم قاله الرب لبطرس: «لما كنت أكثر حداثة كنت تمنطق ذاتك حيث لا تشاء» (يو ٢١:١٨) وهو ما يعنى أن الإنسان الطبيعى يجب أن يمشى حيث يريد وحيث يفهم، أما الإنسان الروحى فهو يسلِّم قيادة حياته للروح الذى أحياناً كثيرة يقوده إلى حيث لا يريد ولا يفهم!!

التعامل مع روح «الريح» ليس سهلاً على الطبيعة البشرية التى تريد أن تفهم كل شيء قبل أن تتحرك، تريد أن تعرف كيف ستسير الأمور قبل أن تخطو خطوة واحدة في الطريق، الإنسان بطبعه يخشى المجهول ولا يحب السير في طريق غير معروف، لكن مَنْ يريد التعامل مع روح «الريح» لابد أن يجتاز كثيراً في الغموض والمجهول!!

السيناريو المسبق

يميل الذهن البشرى دائماً لرسم سيناريو مسبق للأحداث المستقبلة لكى يطمئن ويستطيع أن يخطو للأمام، يتخيل كيفية سير الأحداث في الأيام القادمة ويتوقع فيها الخير لكى يجد الدافع للاستمرار، لكن أحياناً كثيرة نجد اللّه يقود الأحداث في مسار مخالف للسيناريو الذى رسمناه لأنفسنا ويقودنا لأوضاع لم تكن في حسباننا مما يجعلنا نشعر بالاضطراب، والحقيقة أن سبب اضطرابنا ليس المسار الذى اختاره اللّه لنا بل مخالفة هذا المسار لتوقعاتنا المسبقة، إن خطورة توقع سيناريو مسبق للأحداث هو أننا نفقد مرونتنا في يد روح «الريح» ولا نستطيع أن نميل معه حيث يقودنا بسهولة ويسر، وهذا ما سنراه بوضوح أكثر في المرات القادمة بإذن اللّه.

تكلمنا عن الصورة الرمزية الرابعة لروح اللّه ألا وهى صورة «الريح»، وقلنا إنها تشير إلى خفاء وغموض تعاملات الروح في أحيان كثيرة، حيث لا يستطيع الإنسان أن يفهم تماماً الدافع الذى تأتى منه هذه التعاملات ولا الهدف الذى ترمى إليه إلا بعد وقت طويل عندما يكتمل العمل ويظهر في صورته النهائية، حينئذ فقط يدرك الإنسان كمال وجمال عمل الروح الذى عمله من خلال تفاصيل كثيرة اكتنفها الغموض في حينها. ودعونا الآن نرى بأكثر تفصيل هذا الجانب من عمل الروح المبارك في حياة رجال الكتاب المقدس:

إبراهيم

في سن الخامسة والسبعين هبت «الريح» المباركة على إبراهيم تدفعه لكى يترك أرضه وعشيرته وبيت أبيه ويذهب نحو أرض مجهولة لا يعرفها، ولو عرفنا طبيعة الحياة في تلك العصور القديمة وكيف كان الإنسان مرتبطاً بشدة بأرض أجداده وعشيرته حيث يستمد قوته وأمنه من التصاقه بأهله، لأن القوة والكثرة كانت هى اللغة المتعامل بها في تلك الأرض، لأدركنا عندئذ أن ما قاله الروح لأبرام كان أمراً غريباً غير مفهوم الدافع والهدف، لا يمكن للذهن البشرى أن يفهمه في ضوء حقائق الحياة المعتادة. ولابد أن تثور في الذهن تساؤلات من قبيل: ماذا يفعل رجل واحد وامرأته وابن أخيه في وسط شعوب غريبة كثيرة العدد والعتاد؟ وما هو المقابل الذى يستحق كل هذه المعاناة؟ وألا يُعتبر ترك الأرض والعشيرة نوعاً من الخيانة والعقوق وهروباً من المسئولية؟!

لكن لا شك أن شدة «الريح» كانت أقوى من أي تساؤل ثار في ذهن إبراهيم حتى أنه لم يستطع مقاومة الروح وسار في الاتجاه الذى قاده إليه.

فشل التوقع المسبق

لا شك أن إبراهيم استعان في مقاومته للاعتراضات التى ثارت في ذهنه بتوقعاته المسبقة للأحداث. لا شك أنه توقع نجاحاً سريعاً نتيجة لطاعته، وذرية كثيرة تعوضه عن الأهل الذين تركهم... إلخ، وكثيراً ما يستعين الإنسان بالأمل المشرق لكى يحتمل الحاضر المظلم!!

لكن للأسف نجد أن غموض معاملات الروح استمر وازداد، وبدلاً من أن تسير الأحداث كما توقعها إبراهيم نجدها تسير في اتجاه آخر، حيث صادفه الجوع في أرض كنعان مما اضطره

للهجرة والكذب أكثر من مرة، ثم انفصل عنه لوط السند الوحيد الذى خرج به من أرض أجداده، ثم تأخر النسل المتوقع وتوالت السنون تعلن استحالة تحقيق الأمل الذى تعلق به إبراهيم!!

والغريب أنه كلما كانت نفس إبراهيم تخور تحت تأثير الظروف المعاكسة كان الرب يحيى الأمل بداخله من جديد!! فبعد انفصال لوط عنه وزيادة إحساسه بالوحدة والاغتراب نجد الرب يطلب منه أن ينظر إلى رمل الأرض لأن نسله سيكون مثل رمل الأرض الذى لا يُعد (تك ١٣:١٦) ومرة أخرى عندما أظهر إبراهيم للرب يأسه من الإنجاب نجد الرب يطلب منه أن ينظر إلي نجوم السماء لأن نسله سيكوم كنجوم السماء التى أيضاً لا تُعد (تك ١٥:٥)، وفي كل مرة كان إبراهيم يعود إلى الإيمان ويكتسب قوة للاستمرار وكان الرب يحسب له إيمانه براً.

لكن مرور الأيام وعدم تحقيق الوعود كان يثير التساؤلات مرة أخرى في ذهن إبراهيم عن ما هية وعود الرب والهدف الذى يرمى إليه، ولا شك أن النفس اهتزت مرات كثيرة تحت ضغط هذه التساؤلات، وفي إحدى هذه المرات قَبِل الزواج من هاجر ليصنع نسلاً بديلاً عن النسل الموعود من سارة، وهكذا استمر الغموض حتي عندما حان وقت تنفيذ الوعد ضحكت سارة لأن هذا الوعد لم يعد فقط صعب التصديق بل مثيراً للضحك!!

وماذا نقول أيضاً عن تقديم إسحق ذبيحة؟ أى عقل بشرى يستطيع أن يفهم الدافع وراء هذا المطلب الغريب أو الهدف الذى يرمى إليه؟ لا شك أن الغموض القاتل كان يسيطر على ذهن إبراهيم وهو سائر نحو جبل المريا، لكنه على كل حال سار!!

الصورة الكاملة

ولكن بعد نهاية هذه الأحداث نستطيع أن نرى الصورة الكاملة، وما أروعها من صورة!! لقد صنع اللّه من إبراهيم نموذجاً للإيمان يمكن لكل الأجيال أن تحتذى به، ولولا هذا الغموض الشديد والظلام الحالك الذى أحاط بذهن إبراهيم ما كان الإيمان يلمع ببريقه الذى عرفته كل الأجيال، ولو كان الرب قد شرح لإبراهيم الهدف النهائى من وراء هذا الغموض ما كان الإيمان بعد إيماناً!! لقد كان الغموض طوال هذا الوقت ضرورياً لصنع الإيمان في قلب إبراهيم، ولا شك أن إبراهيم بعدما حصد نتائج إيمانه شكر الرب على ليالى الغموض وصراع الشكوك ودموع الحيرة التى اجتازها، فكلها صنعت منه أباً للإيمان، وللحديث بقية.

تكلمنا عن روح «الريح» المبارك الذى يقودنا أحياناً في طريق غامض لا نعرف على وجه اليقين دوافعه أو أهدافه، وقد لا نكتشف حقيقة مقاصده الصالحة إلا بعد نهاية الطريق، هذا إذا سرنا في الطريق بأمانة حتى نهايته رغم الغموض الذى يكتنفه!! ولقد رأينا مثلاً لذلك في حياة إبراهيم، واليوم نلقى نظرات سريعة على كل من:

يوسف والأمانة الغالبة

كل الأحداث التى مر بها يوسف بعد بلوغه السابعة عشرة تبدو غامضة ولا يمكن تفسيرها بسهولة في ضوء محبة اللّه ورعايته لأبنائه، بعد أن كانت حياته تسير بنعومة على سطح حياة هادئة مستقرة ينعم فيها بالمحبة والرعاية والتميُّز، هبَّت فجأة ريح عنيفة قلبت كل الأوضاع رأساً على عقب وبيع يوسف عبداً، آذوا بالقيد رجليه وفي الحديد دخلت نفسه!! تحولت الراحة إلى تعب والنعومة إلى خشونة، ولم تهدأ الريح إلا بعد أن ألقت به في غياهب السجن بتهمة ظالمة مُلفقة!!

كل عقل يتصدى لتبرير أو تفسير هذه الأحداث لابد أن يُصاب بالحيرة والإحباط، فالشر يبدو غالباً والخير يبدو مهزوماً، إبليس يبدو سائداً واللّه يبدو غائباً، لكن هنا يظهر الإيمان ويتزكى وهنا تلمع الأمانة وتغلب ! فالتمسك باللّه حين تبدو الأمور مفهومة ومنطقية أمر طبيعى ليس من الإيمان في شيء، أما التمسك باللّه حين تبدو الأمور معاكسة وغامضة فهذا هو الإيمان بعينه!! وكما حُسب الإيمان لإبراهيم براً هكذا حُسبت الأمانة ليوسف انتصاراً.

وعندما حان وقت مجيء كلمة اللّه أرسل الملك فحلَّه وأطلقه وأقامه سيداً على بيته ومتسلطاً على كل ملكه (مز ١٠٥:١٨ ـ ٢٠) هنا فقط بدت مقاصد اللّه الصالحة «للعيان» واستحقت إعجاب الناظرين وتقديرهم، لكن «الإيمان» كان يرى مقاصد اللّه صالحة حتى وهو بعد في ظلمة العبودية والسجن!!

أخى، على ماذا تعتمد في تقديرك وخضوعك لمعاملات اللّه معك؟ على «العيان» أم على «الإيمان»؟!

أيوب والمنطق البشرى

كانت حياة أيوب تسير بشكل مثالى يليق بإنسان كامل ومستقيم يتقى اللّه ويحيد عن الشر،

ولكن فجأة هبَّت رياح على حياته بدت مضادة ومهلكة، ومحاولة تفسير هذه الرياح أدخلت أيوب في مجادلات واسعة مع أصدقائه، وكلها كانت عقيمة لم تتمخض عن رأى مريح أو فكر يهدىء من روعه ويبرِّد جراحه.

كان من الأفضل لأيوب أن يحنى رأسه أمام حكمة اللَّه حتى ولو لم يفهم تماماً القصد من ورائها، لكنه لم يستطع أن يفعل هذا بشكل كامل، مما دفع الرب ـ بعد انتهاء الريح ـ لمعاتبته على محاولته إخضاع معاملات اللَّه للمنطق البشرى، فحكمة اللَّه لا يمكن وضعها تحت المنطق البشرى، ليس لأنها ضد المنطق البشرى بل لأنها فوق المنطق البشرى!!

إيليا والتوقع المسبق

قلنا سابقاً إن خطورة التوقع المسبق تكمن في أنه يفقدنا مرونتنا في التجاوب مع مسار الأحداث الذى يرسمه اللَّه، وهذا ما حدث مع إيليا: فبعد أحداث جبل الكرمل توقع إيليا أن يرجع الشعب إلى اللَّه في توبة جماعية تطيح بعرش الوثنية في إسرائيل، لكنه فوجىء بأن هذا لم يحدث وأن إيزابل مازالت تجلس على العرش تمارس بطشها وتهديداتها، لذلك أصابه الإحباط وترك مكانه وذهب إلى البرية، لذلك استحق أن يعاتبه الرب قائلاً «مالك ههنا يا إيليا»؟ وذلك بعد ما أجاز أمامه قواته من نار وزلزلة وريح محاولاً أن يشرح له أن سير الأحداث بهذا الشكل الغامض ليس لنقص في قدرة اللَّه على تغيير الأوضاع لكن لقصد آخر في قلب اللَّه لا يستطيع إيليا أن يفهمه في الوقت الحاضر.

إنه وقت للإيمان !!

أخى، هل تمر الآن بوقت تبدو فيه الريح مضادة؟ هل تعجز عن فهم فكر اللَّه وإرادته لحياتك؟ هل يضغط عليك العدو بشكاية ضد صلاح اللَّه؟ هل تشعر بأنك ريشة في مهب «الريح»؟ هل تعتقد أن الأحداث الراهنة ستؤدى لتدميرك؟ هل فشل توقعاتك المسبقة أصابك بالإحباط؟ إنه إذن وقت للإيمان!! إنه الوقت المناسب لكى تمارس الإيمان الحقيقى، ثق في صلاح الرب وكن أميناً للَّه حتى وأنت متألم!! لا تدخل في محاولات عقيمة لوضع محاولات اللَّه تحت المنطق البشرى بل اسلك طريق إيمان الأطفال البسيط، وطوبى لمن آمنوا ولم يروا!! وللحديث بقية.

رأينا عمل روح الريح في حياة بعض رجال اللّه في العهد القديم مثل إبراهيم ويوسف وإيليا وأيوب، واليوم نتتبع هذا العمل على صفحات العهد الجديد.

يوحنا المعمدان .. رجل لا تحركه الريح !!

قال رب المجد عن المعمدان إنه رجل ليس قصبة تحركها الريح، أى أنه لم يكن رجلاً هشاً يسمح للظروف أن تقوده أو ينحنى أمام التيار مهما كان عنيفاً، كان رجلاً صلباً، نبياً بل وأعظم من نبى، لم يهتز أمام شرور شعبه ولم ينحنِ أمام جبروت هيرودس الماجن، كان يعلم أنه مُرسل من اللّه ليعد الطريق أمام الرب ويعلن حمل اللّه للشعب اليهودى، كان يستشعر عظمة المسيح حتى حسب نفسه غير مستأهل لحمل حذائه، ولا شك أنه امتلأ بالثقة في أن عظمة المسيح لابد أن تُستعلن بانتصار واضح على شرور الشعب وفجور الحاكم.

لم يتوقع يوحنا أن عظمة ابن اللّه ستستتر خلف وداعة ابن الإنسان، ابن الإنسان الذى لم يأتِ ليدين العالم بل ليخلُص به العالم، لم يكن هذا الزمان زمان دينونة بل زمان نعمة، زماناً لكى يبصر العُمى ويمشى العُرج ويطهر البُرص ويسمع الصم ويقوم الموتى ويُبشَّر المساكين، وهذا لا يعنى أن الشرور ستمر بدون عقاب بل هناك يوم للدينونة عندما يقف الجميع صغاراً وكباراً أمام العرش الأبيض العظيم لكى يدانوا بحسب ما هو مكتوب في الأسفار.

لذلك عندما سارت الأمور على نحو غير متوقع وألقى يوحنا في السجن بأمر من هيروديا الفاجرة، وبدا أن يسوع لا يفعل شيئاً لتصحيح هذا الظلم، اهتزت نفس يوحنا واضطرب تفكيره وأرسل يسأل ما إذا كان يسوع هو الآتى أم ينتظروا آخر!!

لكن لابد أن نلاحظ هنا أن الرب لم يستاء من سؤال يوحنا بل أجاب عليه بكل رقة واحترام ثم التفت للجموع ومدح يوحنا بأعظم مديح، لماذا ؟ لأن الرب يعلم قسوة الريح المضادة على رجل لا تحركه الريح!! كلما كان المؤمن أميناً للرب ومحباً له كلما عانى أكثر إذا اضطر للخضوع لأحداث لا يعتقد أن فيها مجداً للرب أو تتميماً لمشيئته!! المؤمن الهش الذى اعتاد أن ينحنى أمام أى ريح غريبة قد يجد من السهل أن يميل مع روح الرب عندما يقوده في طريق غامض ليس لأنه خاضع للرب بل لأنه سلبى اعتاد الانقياد لكل ريح، أما المؤمن الصلب الذى لم يعتاد الانحناء أمام

الريح الغريبة فقد يجد معاناة في خضوعه لروح الريح عندما يقوده في اتجاه لا يفهمه ليس لأنه غير مؤمن بل لأنه لم يعتدَ الانحناء لما لا يفهم، ولا شك أنه سيخضع في النهاية عندما يتيقن من قيادة الرب له لكن بعد معاناة وحيرة، والرب يحترم هذه المعاناة لأنها دليل صلابة وأمانة ومحبة للرب، لهذا السبب لم يستاء الرب من حيرة المعمدان وسؤاله لأنه كان رجلاً لا تحركه الريح... بسهولة!!

التلاميذ ... وعدم الفهم الاختيارى !!

في وقت الصليب وجدنا التلاميذ ينزعجون من الأحداث ويهربون كلٌ في طريق، لم يفهموا ما حدث ولم يتوقعوه فلم يستطيعوا التعامل معه بشكل صحيح، لكن هل نستطيع أن نقول أن عدم فهمهم كان نتيجة لغموض إرادة اللّه؟ كلا، لأن الرب أعلن لهم كثيراً عن ضرورة تسليمه ليد الخطاة ليُقتل وفي اليوم الثالث يقوم، أى أن إرادة اللّه كانت معلنة لهم من قبل، الحقيقة أن عدم الفهم كان نتيجة لعدم قبولهم لأقوال الرب، لم يريدوا أن يقبلوا فكرة الألم فلم يفهموا الكلام. إنه عدم فهم اختيارى ناتج عن إرادة غير خاضعة!! إن الإنسان يفهم ما يريد أن يقبله ولا يفهم ما لا يريد أن يقبله!! وعدم فهمنا لمعاملات اللّه لا يرجع في أحيان كثيرة لغموض هذه المعاملات بل لعدم قبولنا لها!! لكن شكراً للّه لأن وضع التلاميذ هذا لم يستمر طويلاً.

التلاميذ .. والأمانة حتى الموت !!

لا شك أن حلول الروح القدس في يوم الخمسين جعل التلاميذ رجالاً يتميزون بالإيمان والتسليم وسهولة الانقياد للروح، فكم ثارت ضدهم الأحداث بشكل غير متوقع ولكنهم ظلوا على إيمانهم، بل كلما كانت الريح أشد والغموض أكبر صعدت منهم رائحة أطيب وأجمل، فها بطرس ينام بعمق وسط الحراسة وأمام الموت، وها بولس وسيلا يصليان ويسبحان اللّه في السجن الداخلى، بل ها يوحنا الحبيب يُصلى في الروح في يوم الرب رغم أن الريح العاتية ألقت به وحيداً في جزيرة نائية جرداء، إنها الأمانة حتى الموت!! مجداً للرب، لقد استطاع يسوع بحياته وموته وقيامته والروح القدس بحضوره المبارك أن يصنعا شعباً يطيع الرب ويقبل مشيئته مهما كانت غامضة وغير متوقعة، ليتنا نكون في عداد هذا الشعب المبارك!! يتبع.

قبل أن نختتم اليوم حديثنا عن روح الريح المبارك لابد أن نتكلم عن بعض الملاحظات والفروق العملية:

دعوة للتسليم ..

عندما يقودك الرب إلى طريق غامض الملامح وتضطر أن تخطو خطوات في الظلام فاعلم أن الرب يدعوك إلى اختبار الإيمان والتسليم، إنه اختبار رائع وعجيب، عجيب لأنه مضاد لطبيعتنا البشرية، فنحن بحسب الطبيعة نحب أن نسير في الأمان ونمتلك زمام الأمور في أيدينا ونُحدد بأنفسنا مستقبلنا ونختار مواضع أقدامنا، بالطبيعة نحب أن نتجنَّب المخاطر وأن يكون النور مسلَّطاً على كل جوانب الطريق لأننا نخشى المجهول، لو تُركنا لأنفسنا ما اخترنا أبداً الإيمان طريقاً!!

لذلك يلجأ الرب أحياناً لقيادتنا رغماً عنا في طريق غامضة محفوفة بالمخاطر ويكتنفها الظلام والمجهول لكى نضطر إلى تعلُّم الإيمان والاتكال على شخصه والتسليم لقيادته، ورغم أن هذا الاختبار يكون عادة مؤلماً ومصحوباً بالحيرة والخوف إلا أنه السبيل الوحيد للتلامس مع اللّه والتيقن من وجوده الفعلى في حياتنا، وبدون هذا الاختبار يظل اللّه فكراً جميلاً يراود أذهاننا من حين لآخر لكنه بلا وجود فعلى مصيرى في حياتنا، لكن عندما تضطرنا الريح أن نلقى بأنفسنا في الظلام حينئذ سنكتشف أن الأذرع الأبدية التى طالما سمعنا عنها إنما هى حقيقة مؤكدة!!

... وليس للاستسلام !!

هناك فرق شاسع بين التسليم والاستسلام، فهناك أفراد سلبيون لا يحبون حمل مسئولية الاختيار ويلقون بالمسئولية على الأقدار التى تتحكم في مصائر البشر، يتركون أنفسهم لكل ريح تحملهم ويريحون أنفسهم من عناء السعى والاجتهاد، يظنون أن الحياة الروحية هى مرادف لتغييب الذهن والتواكل، هذا استسلام وليس تسليماً!!

المؤمن لا يستسلم للظروف بل هو يسعى بكل جد واجتهاد في الطريق الذى يراه صواباً، ويبذل كل جهده في التفكير وفهم الحقائق ويحمل مسئولية الاختيار، ولكن عندما ـ ورغم كل اجتهاده ـ يجد نفسه يواجه ريحاً أقوى منه تقوده لطريق لم يختره وبحسب مقاييس فهمه لا يقبله، ورغم كل محاولاته يجد نفسه مضطراً للسلوك في هذا الطريق ويكتشف أنه أصبح يواجه ظروفاً تعجز

أمامها كل حكمته وتقصر دونها كل قوته، عندئذ فقط يبدأ التسليم بكامل وعيه وإدراكه للقوة الأعلى التى قادته لهذا الطريق ويتكل على الحكمة الأعظم من حكمته والذراع الأقوى من ذراعه لكى تقوده في هذا الطريق المجهول وتصل به إلى الخير الذي لا يراه بعينيه ولا يفهمه بذهنه لكنه يثق في وجوده لأنه يثق أن الرب صالح ومشيئته دائماً هى الخير.

هذا هو التسليم، هو وصول الحكمة الإنسانية إلى مداها ثم التسليم للحكمة الإلهية في مواجهة ظروف أكبر من الحكمة الإنسانية، أما الاستسلام فهو عدم استخدام الحكمة الإنسانية إطلاقاً وتفضيل الجهل والتواكل والسلبية وتغييب الذهن، التسليم يصنع قديسين وصلوا في حكمتهم الإنسانية إلى مداها ثم قادهم الرب إلى الحكمة الإلهية أيضاً، أما الاستسلام فيصنع كيانات نكرة لا قيمة لها سواء في مجال الحكمة الإنسانية أو الإلهية!!

فرصة للارتقاء فوق الطبيعة

كثيراً ما يكون هدف روح الريح هو أن يحمل المؤمن لآفاق أرحب من حدود القوانين الطبيعية التى تسجن الإنسان بداخلها ، فعندما يتأخر حتى يموت لعازر فهو في الحقيقة يرفع إيماننا لمستوى الإقامة من الأموات، وعندما يدفعنا إلى الأتون المحمى سبعة أضعاف فلأنه يرتقى بنا للتعامل مع الإله القادر أن يبطل قوة النيران، وعندما يتركنا في وسط البحر الهائج يُقدم لنا فرصة للسير فوق المياه!! في كل مرة يغلق الرب علينا تحت ظروف يبدو أنه لا رجاء فيها تكون الفرصة مواتية للارتقاء بإيماننا لآفاق أرحب وللسير فوق الظروف!!

.. وليس لكسر قوانين الطبيعة !!

لكن ينبغى ألا نظن أن المؤمن هو إنسان يسير دائماً ضد قوانين الطبيعة، كلا، المؤمن إنسان ملتزم يعرف جيداً القوانين التى وضعها اللّه لتحكم حياة البشر وهو أول مَنْ يحفظ هذه القوانين ويسير بحسبها ، وهو يعلم جيداً أن كسر هذه القوانين يعرِّض الإنسان للعقاب الفورى، لكن ما نقوله هو أنه أحياناً وفي حالات خاصة قد يقود الروح المؤمن للسير فوق ما هو طبيعى لا لكى يكون هذا قانوناً فيما بعد بل لكى يعلن أنه إله الطبيعة الذى خلقها ووضع قوانينها وسيظل دائماً فوقها ، في هذا الوقت يختبر المؤمن السير فوق الطبيعة وبمجرد انتهاء هذا الوقت يعود المؤمن لحفظ قوانين الطبيعة والسلوك بموجبها ، نقول هذا لئلا يظن أحد أن الحياة الروحية هى مرادف للفوضى أو مبرر للسلوك بلا قانون أو ضابط (يتبع).

بعد ما تكلمنا عن روح الوداعة في صورة الحمامة، وروح القداسة والقضاء في صورة النار، وروح الارتواء في صورة المياه، وروح العمل الخفى في صورة الريح، نبدأ اليوم حديثنا عن صورة رمزية خامسة لروح اللّه ألا وهى:

الزيت

منذ فجر التاريخ المقدس وجدنا رجال اللّه يستخدمون الزيت للتعبير عن تكريس الأشياء وتقديسها لخدمة اللّه، حتى قبل مجىء الشريعة بطقوسها المحدَّدة كان صب الزيت على الأشياء أو الأشخاص يشير لتكريسها للرب.

عندما قام يعقوب ليذهب إلى حاران ولاقاه الرب في البرية برؤيا السلم المنصوبة على الأرض ورأسها يمسُّ السماء، قام يعقوب في الصباح وأخذ الحجر الذى وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً وصبَّ زيتاً على رأس هذا العمود ودعا اسم ذلك المكان «بيت إيل»، كان هذا المكان من قبل بقعة جرداء لكن عندما نزل اللّه ليتكلم مع يعقوب في هذا المكان أصبح بيتاً للّه وباباً للسماء، تماماً مثل الحجر الصلب الجاف عندما يُصَبُّ فوقه الزيت الناعم المنعش (تك ٢٨ :١٨).

وعندما أتمَّ اللّه وعوده وعاد يعقوب سالماً مُباركاً إلى بيت إيل وتكلم اللّه معه مرة أخرى هناك، عاد فنصب عموداً من حجر وسكب عليه زيتاً ودعا اسم المكان الذى فيه تكلم اللّه معه بيت إيل (تك ٣٥ :١٤). إن حياتنا مثل البرية الجرداء لكن عندما يختار اللّه أن يقترب منا ويتكلم معنا تصير حياتنا بيتاً للّه وباباً للسماء!! عندئذ يُصبُّ الزيت المنعش على القلب الحجرى الجاف ويتحوَّل إلى مذبح لعبادة رب الجنود!!

دهن المسحة

بعدما جاء الناموس صارت هذه الممارسة التلقائية التى قام بها يعقوب إحدى طقوس العبادة الرئيسية، حيث طلب اللّه من موسى أن يصنع دهن المسحة المقدس من قاعدة رئيسية هى زيت الزيتون مضافاً إليه أفضل وأزكى العطور والأطياب بنسب محددة وثابتة (خر ٣٠ :٢٢ ـ ٢٤) وكان يُمسح المسكن وكل ما فيه بدهن المسحة المقدس لكى يتقدس للرب، وكذلك المذبح وجميع آنيته والمرحضة وقاعدتها (لا ٨ :١٠، ١١) ويُصبُّ منه على رأس هارون ورؤوس بنيه لتقديسهم

للخدمة (لا ٨:١٢) كما كان يُستخدم لمسح الملوك (١صم ١:١٠ ، ١:١٦) ومسح الأنبياء (١مل ١٦:١٩) وكانت هذه المسحة تشير إلى أنهم صاروا مكرّسين لخدمة الرب فقط، لم يعد مسموحاً لهم أن يعيشوا حياتهم كما يريدون بل كما يريد اللّه، «والكاهن الأعظم الذى صُبَّ على رأسه دهن المسحة لا يكشف رأسه ولا يشق ثيابه ولا يأتى إلى نفس ميتة ولا يتنجس لأبيه أو أمه ولا يخرج من المقدس... لأن إكليل دهن مسحة إلهه عليه» (لا ٢١:١٠ ـ ١٢).

كان شاول ابن قيس يسعى في اثر أتن أبيه الضالة لكن عندما التقاه صموئيل وأخذ قنينة الدهن وصبَّ على رأسه أصبح شاول رجلاً آخر، لقد مسحه الرب على ميراثه رئيساً وأعطاه قلباً يصلح لهذه المهمة (١صم ١:١٠، ٩). كانت هذه المسحة تشير إلى أن اللّه يدعو شخصاً ما لعمل ما، والذى يدعو إلى العمل يعطى الإمكانية والكفاية للقيام به!!

روح المسحة

عندما نأتى إلى العهد الجديد نفهم أن دهن المسحة كان رمزاً لأحد أعمال الروح القدس ألا وهو عمل التكريس والتقديس، والروح هو الذى ينسكب على حياتنا الجرداء فيصيِّرها قدساً للرب وموطئاً لقدميه، فالرسول يقول «أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذى فيكم الذى لكم من اللّه وأنكم لستم لأنفسكم؟» (١كو ١٩:٦) إن سكنى الروح القدس فينا جعلت من حياتنا هيكلاً مقدساً للّه، لم نعد ملكاً لأنفسنا ولا في مقدورنا أن نعيش كما نريد بل كما يريد اللّه.

والروح الذى يقدّسنا ويكرسنا لمجد اللّه يمنحنا في ذات الوقت الإمكانية والكفاية للقيام بالعمل الذى يدعونا إليه، لذلك يقول الرسول أيضاً «ليس أننا كفاة من أنفسنا بل كفايتنا من اللّه الذى جعلنا كفاة لأن نكون خدام عهد جديد» (٢كو ٥:٣، ٦)، والرسول يوحنا يتكلم عن عمل الروح بداخلنا مشبهاً إياه بمسحة الدهن في العهد القديم: «وأما أنتم فالمسحة التى أخذتموها منه ثابتة فيكم ولا حاجة بكم إلى أن يعلمكم أحد بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شىء وهى حق وليست كذباً» (١يو ٢٧:٢) ونحن نعلم من كلمات الرب في (يو ٢٦:١٤ ، ٢٦:١٥) أن الذى يعلمنا كل شىء وهو الحق هو شخص الروح القدس نفسه، أى أن المسحة التى يتكلم عنها الرسول يوحنا هى شخص الروح، وللحديث بقية

تكلمنا عن الصورة الرمزية للزيت وقلنا إنها تشير إلى أحد أعمال شخص الروح القدس ألا وهو عمل التكريس والتقديس، ففى العهد القديم كان زيت المسحة يُستخدم في مسح الأماكن والأشياء والأشخاص إعلاناً عن تكريسهم لخدمة رب الجنود، وهذا يقودنا لحقيقة كتابية هامة ألا وهى:

مبدأ التكريس للخدمة

إن خدمة اللّه لا تتم إلا بمواد مقدسة ومكرسة للخدمة، فاللّه لا يقبل أن تمتد أيادى غير طاهرة لتعمل في هيكله، والقلب الذى يحب العالم ويقبل نيره على عنقه لا يمكن أن يأتى ليقدم خدمة مقبولة لرب الجنود، فلا يمكننا أن نخدم الرب بقلب منقسم أو نكرمه بفضلات أوقاتنا وممتلكاتنا، لأننا في الواقع لا يمكننا أن نخدم سيدين، وعلى مَنْ يريد أن يخدم الرب أن يكون أولاً ملكاً للرب.

ولقد أراد الرب أن يرسِّخ هذا المبدأ في نفوس الشعب القديم من خلال عدة وصايا، فمن بين الأبناء يكون الابن البكر مكرَّساً للرب، ومن بين غلة الأرض تكون الباكورة للرب، ومن بين البهائم الطاهرة تكون أفضلها ذبيحة للرب، ومن بين الأيام هناك يوماً مقدساً للرب، ومن بين السنين تكون السنة السابعة سبتاً للرب، ومن بين الممتلكات يكون العُشر ملكاً للرب، ومن بين الأسباط يكون سبط لاوى مخصصاً لخدمة الرب... إلخ.

لم يكن القصد الإلهى من هذه الوصايا هو تلك الأمور المادية بل بالحرى ترسيخ مبدأ التكريس للرب، تأكيد حقيقة أن للرب الأرض وملأها المسكونة والساكنين فيها، أن للرب حقاً في كل ما تمتلكه أيدينا وهو لا ينتظر ما يجود به الإنسان بل من حقه أن يقتطع لنفسه أشياءً وأشخاصاً يكرِّسهم لخدمته، وكان المسح بالزيت المقدس هو العلامة لهذا التكريس، وكل ما مُسح بالزيت لم يكن ممكناً أن يُستخدم في أغراض أخرى بخلاف خدمة رب الجنود، فكما أن الرب لا يقبل في خدمته مَنْ هو غير مكرَّس له كذلك لا يقبل ممن تكرَّس له أن يخدم آلهة أخرى!! لذلك نقرأ أن الرب أمات «عُزَّة» لأنه مدَّ يده إلى تابوت العهد وهو ليس مُقدَّساً لخدمة التابوت، كما نقرأ أن الرب ضرب «عُزِّيا» الملك بالبرص لأنه دخل إلى المقادس وهو ليس بكاهن، فاللّه لا يقبل الخدمة إلا ممن دعاهم هو لخدمته!!

كذلك فمَنْ دعاه الرب لخدمته لا يمكن أن يُستخدم لأغراض أخرى، فنقرأ أن المكان الذى اختاره الرب ليضع اسمه فيه مُسح بالزيت وتكرَّس لعبادة رب الجنود، ولذلك نرى الرب يغضب ويطرد الباعة من الهيكل قائلاً «بيتى بيت الصلاة يُدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص» (مت ٢١:١٣) والأوانى التى مُسحت لخدمة الهيكل ما كان ممكناً أن تُستخدم لغرض آخر، لذلك أُعتبرت إهانة بالغة أن يشرب بيلشاصر الملك ورفقاؤه في أوانى الهيكل خمراً وهم يسبِّحون آلهة أخرى، وكان لابد عندئذ أن تتدخل اليد الإلهية لتكتب قصاصاً قاسياً رداً على هذه الإهانة (دا ٥:١ ـ ٤).

وكذلك الأشخاص الذين يتكرسون لخدمة الرب كان الدم يوضع على آذانهم اليمنى وإبهام أيديهم اليمنى وأرجلهم اليمنى إشارة إلى موتهم عن العالم وتكريسهم فيما بعد لخدمة رب الجنود وحده.

لكن لابد هنا أن نؤكد أن كل هذه المعانى لم تصل أبداً إلى كمالها في ظل العهد القديم، لأنها كانت تتم بشكل طقسى ورمزى ومجازى لم يرتق أبداً إلى الحقيقة التى يريدها رب الجنود، إلى أن جاء في ملء الزمان مَنْ سُمىَّ بحق:

«المسيح» !!

أحد أسماء ربنا هو «المسيح» فهو ليس «مسيح» الرب مثل كثيرين في العهد القديم بل هو «المسيح» الوحيد الذى قَبِل مسحة كاملة من اللَّه، لقد عاش حياة التكريس الحقيقية بكل عمقها مما أشبع قلب الآب وأرضاه، حتى قيل عنه بروح النبوة «أحببت البر وأبغضت الإثم من أجل ذلك مسحك اللَّه إلهك بدهن الابتهاج أكثر من رفقائك» (مز ٤٥:٧) وقيل أيضاً «يسوع الذى من الناصرة كيف مسحه اللَّه بالروح القدس والقوة، الذى جال يصنع خيراً ويشفي جميع المتسلط عليهم إبليس لأن اللَّه كان معه» (أع ١٠:٣٨).

لقد نُسج بروح المسحة وهو بعد في بطن أمه، ونراه وهو صبى يعيش فيما لأبيه، لم تكن له حياته الخاصة بل كل سروره كان في عمل مشيئة أبيه، لم يخدم ذاته قط بل قدّسها لكى يصنع شعباً مقدّساً للَّه، إن كل المسحات الرمزية التى تمت في العهد القديم وجدت كمالها وتمامها في يسوع «المسيح» (يتبع).

قلنا إن عمل المسحة الذى يقوم به الروح القدس وجد كماله في شخص ربنا يسوع المسيح، لقد كان ربنا هو الشخص الوحيد الذى اجتمعت فيه كل «المسحات» التى رأيناها تتم بشكل جزئى ورمزى في العهد القديم، كان دهن المسحة يُستخدم لمسح الملوك والأنبياء والكهنة في العهد القديم، وفي العهد الجديد رأينا الروح يمسح ربنا المعبود ملكاً ونبياً وكاهناً في آن واحد!!

ملك الأرض كلها !!

قال اللّه عن المسيح بروح النبوة «أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون جبل قدسى» (مز ٢:٦) وهذا المُلك ليس مقصوراً على شعب واحد أو مكان واحد بل هو يمتد إلى جميع الأمم وإلى أقاصى الأرض (مز ٢:٨).

ولقد أخذ الرب هذا الحق في المُلك بسبب قبوله الألم لأجل كل إنسان، إن مُلكه مؤسس على استحقاق كونه الوحيد الذى أحب الإنسان حباً حقيقياً ، لذلك يقول الكتاب «يسوع نراه مكللاً بالمجد والكرامة من أجل ألم الموت، لكى يذوق (أو لأنه ذاق) بنعمة اللّه الموت لأجل كل واحد» (عب ٢:٩).

ملوك الأرض يسودون الناس ويتسلطون عليهم ويعتبرون تسلطهم إحساناً (لو ٢٢:٢٥) قمة الغطرسة والكبرياء!! أما الملك الحقيقى فهو الذى تواضع ونزل تحت الجميع لكى يخدم ويفدى الجميع، لذلك استحق أن يكون ملكاً على الجميع، لقد نزل إلى أقسام الأرض السفلى بمحبته وفدائه لذلك استحق أن يكون ملك الأرض كلها.

تشهد الأرض ملوكاً من كل شكل ولون، قليلون صالحون وكثيرون طالحون ولكن جميعهم زائلون، ومُلكهم سطحى وجزئى وسلطانهم يصبُّ في صالحهم أكثر مما يصبُّ في صالح شعوبهم، أما مُلك سيدنا فهو الوحيد الدائم والأبدى، لأنه الوحيد الذى يصبُّ في صالح الإنسان ومجد اللّه ولأنه أيضاً الوحيد المؤسس على الحق والاستقامة، وفي هذا يقول الكتاب بوضوح «وأما عن الابن: كرسيك يا اللّه إلى دهر الدهور، قضيب استقامة قضيب مُلكك» (عب ١:٨).

لكنه ملك غائب !!

لكننا في الزمان الحاضر لا نرى أن كل شىء خاضع فعلاً لسيادة الرب يسوع المسيح، إنه غائب

عن الأرض ومازال جالساً عن يمين اللّه منتظراً حتى يضع أعداءه موطئاً لقدميه، لكن هذا الوضع مؤقت حتى تنتهى سنة الرب المقبولة التى فيها يتعامل اللّه مع الإنسان بالنعمة تاركاً له حرية الاختيار، حتي لو اختار الإنسان ألا يخضع لُملك الرب وكان لسان حاله: «لا نريد أن هذا يملك علينا» (لو ١٩:١٤).

لكن نشكر اللّه أنه حتى في هذا الزمان الشرير هناك عبيد أمناء لهذا الملك الغائب، يعيشون بأجسادهم تحت سلطان هذا الزمان لكن قلوبهم لا تعترف ولا تجثو إلا للملك الغائب، يعيشون بأمانة له وكأنه موجود معهم بالجسد، يعطونه سلطان المُلك على كل أفكارهم وخلجات نفوسهم، يطيعون أوامره ويضعون حياتهم رهن إشارته، كلمة واحدة منه تفجِّر ينابيع القوة فيهم ولحظة صمت منه توقف سريان الحياة فيهم!! لأن الحياة بالنسبة لهم هي شخصه العظيم.

إنهم يعلمون أن الأرض ملكاً له ولكنهم يرتضون أن يحيوا فيها غرباء مكتفين بخيمة ومذبح، وبعضهم لم يجد خيمة وعاش تائهاً في مغاير وشقوق الأرض، يعلمون أن سيدهم له السلطان على النيران الملتهبة والأسود الجائعة ولكنهم لا يطالبونه بأن يفعل لأجلهم شيئاً لأنهم يحبونه ويخضعون له حتى وإن لم يفعل ما يجنبهم الألم!! سلطان الملوك لا يرهبهم وأموالهم لا تغريهم وبريق العالم لا يخدعهم وقسوته لا تكسرهم، إنهم موجودون في كل جيل سواء بشكل علنى أو مستتر، لكن دائماً هناك عبيد أمناء لهذا الملك الغائب، وصلاتهم في الليل والنهار هى:

ليأت ملكوتك !!

هذا المُلك الخفى لابد أن يُستعلن، والملك الذى ارتضى أن يخفى ملكوته كل هذا الزمان لابد أن تنشق السماء يوماً ويراه الجميع نازلاً راكباً على فرس أبيض ومتسربلاً بثوب مغموس بالدم، ومن فمه يخرج سيف ماض لكى يضرب به الأمم ويرعاهم بعصا من حديد، سيحارب ويهزم كل ملوك الأرض ولكن حربه تختلف عن كل حرب رأتها البشرية، لأنه «بالعدل يحكم ويحارب»!! وعندئذ سيرى الجميع اسمه المكتوب على ثوبه وفخذه: ملك الملوك ورب الأرباب (رؤ ١٩). يتبع.

إذا كان زيت المسحة المقدس قد أُستخدم قديماً لتكريس الملوك والكهنة والأنبيا ء بشكل جزئى ورمزى، فإن روح المسحة المبارك قد أكمل كل هذه الرموز والظلال عندما حلَّ بكل ملئه على شخص ربنا يسوع «المسيح» مكرساً إياه ملكاً وكاهناً ونبياً بشكل كامل وأبدى، ولقد تكلمنا في المرة السابقة عن مسحة الملكوت واليوم نتحدث عن مسحة الكهنوت.

مَنْ هو الكاهن ؟

كانت وظيفة الكاهن أن يكون وسيطاً بين اللَّه والناس، كان عمله مزدوجاً: أن يقف أمام اللَّه لأجل الناس ويقف أمام الناس لأجل اللَّه!! من الناحية الأولي كان ينبغى أن يكون مقدَّساً بشكل خاص لكى يستطيع الدخول إلى المقادس والمثول أمام اللَّه، وعندما يقف أمام اللَّه كان يعلم أنه لا يقف لأجل نفسه بل لأجل الشعب، كان رئيس الكهنة يحمل على كتفيه وصدره أسماء أسباط إسرائيل الاثنى عشر، إشارة رمزية إلى أنه يدخل إلى المقادس لأجل كل فرد في الشعب، يتشفَّع لأجلهم ويلتمس غفراناً لخطاياهم وتسديداً لاحتياجاتهم (عب ٥:١، ٢) أى أنه من خلال الكهنوت كان الشعب يبقى ماثلاً أمام اللَّه دائماً (خر ٢٨:٢٩، ٣٠).

ومن الناحية الثانية كان ينبغى أن يقف الكاهن أمام الشعب لأجل أمور اللَّه، كانت مسئوليتهم أن يعلِّموا الشعب الشريعة ويحثوهم على حفظها (لا ١٠:١١) كان ينبغى أن يكونوا ممثلين لقداسة اللَّه أمام الشعب ساعين لدفع الشعب لحياة القداسة والطاعة لوصايا اللَّه، كان ينبغى أن يقووا المريض ويعصبوا الجريح ويجبروا الكسير ويستردوا المطرود ويطلبوا الضال. بالاختصار كان ينبغى أن يكونوا ممثلين لشخص اللَّه أمام الشعب.

ولــــكن ..

غنى عن البيان أن نقول إن هذا الوضع المثالى لم يتحقق قط في ظل الكهنوت اللاوى، فأحد من الكهنة لم يستطع أن يملأ هذا المركز السامى ويشغل هذه الوظيفة الخطيرة، لقد حملوا أسماء الشعب طقساً لكن لم يحملوهم فعلاً وحباً، لقد اهتم الكهنة بشؤونهم الخاصة ورعوا أنفسهم ولم يرعوا الشعب بل تسلطوا عليهم بعنف (حز ٣٤:٤)، ولم يهتموا بتعليم الشريعة للشعب لأنه كلما كان الشعب جاهلاً وخاطئاً كانت السيطرة عليه أسهل!! ورغم أن هناك استثناءات لبعض الكهنة الصالحين الذين خدموا بأمانة في أيامهم إلا أن الغالبية لم تكن على قدر المسئولية، ويعوزنا الوقت

لكى نسرد الأحداث المؤسفة والمخجلة التى صاحبت أيام خدمتهم، ويكفى أن نراهم في أيام تجسد سيدنا وقد صاروا تجاراً يحتكرون تجارة الذبائح بأنواعها ويبيعونها بأغلى الأثمان وقد ملأوا الهيكل بالباعة والصيارفة واستحقوا من الرب وصفهم باللصوص!! لقد صارت مهنة الكهنوت مصدراً للغنى الفاحش بعدما كان الكاهن ليس له نصيب في الأرض لأن نصيبه هو الرب!!

الكاهن الحقيقى

لذلك انسكب روح المسحة في ملء الزمان على شخص ربنا يسوع المسيح ماسحاً إياه كاهناً إلى الأبد على رتبة ملكى صادق (مز ١١٠:٤) لأنه الوحيد الذى استطاع أن يملأ مركز الوسيط بكل كمال واقتدار، فمن الجهة الأولى استطاع بقداسته الشخصية أن يدخل إلي الأقداس السماوية عينها حاملاً دم نفسه كفارة وفداءً لكل واحد من شعبه، لقد أحبنا فعلاً وحملنا فعلاً على كتفيه وقلبه ودخل بنا إلى المقادس عينها متشفعاً لأجلنا، وهو مازال هناك في الأقداس متشفعاً فينا حتى يصل بنا إلى الخلاص التام، إنه قادر أن يخلِّص إلى التمام جميع المتقدمين به إلى اللّه لأنه حى في كل حين ليشفع فيهم (عب ٧:٢٥) له كل المجد!!

ومن الناحية الثانية كان هو الوحيد الذى استطاع أن يقدم للإنسان صورة كاملة عن اللّه، ليس بالكلمات والتعاليم الجوفاء بل بحياته عينها، لقد رأينا في شخصه اللّه كاملاً، لقد ظهر اللّه في الجسد (١تى ٣:١٦) لقد استطاع بحياته أن يجعلنا نحب اللّه ونسعى إليه، ولقد رسم لنا بحياته وموته طريقنا للوصول إلى الآب، طريقاً حياً كرّسه لنا بجسده، له كل المجد!!

وهكذا استحق سيدنا أن يكون كاهناً إلى الأبد والوسيط الوحيد بين اللّه والناس (١تى ٢:٥) وهو الآن يقوم بهذا العمل المزدوج بكل اقتدار: يشفع أمام اللّه لأجلنا ويتعامل معنا بروحه لأجل تقديسنا وتكميلنا.

أخى، هل استمتعت بشفاعته هذه؟ هل تتقدم إلى اللّه من خلال يسوع وحده؟ وهل تقبل عمل روحه فيك؟ إنه رئيس كهنتك الوحيد، ليس لك قبول أمام اللّه إلا فيه وليس لك تقديس في الحياة إلا به!! (يتبع)

قلنا إن سيدنا قد مُسح ملكاً وكاهناً إلى الأبد، وقد اكتملت في شخصه المبارك كل المسحات الرمزية والجزئية التى كانت لملوك وكهنة العهد القديم، واليوم نضيف أن روح المسحة المبارك قد مسحه أيضاً «نبياً» بل بالحرى «النبى»!!

مَنْ هو النبى ؟

النبي هو الشخص المسئول عن معرفة فكر اللّه الخاص بالشعب في الأوقات والظروف المختلفة، وهو المسئول عن نقل هذا الفكر للشعب بأكمل صورة ممكنة، وفي بعض الأحيان يكون مسئولاً أيضاً عن تحقيق هذا الفكر وتحويله إلى واقع ملموس.

ووظيفة النبى أساسية جداً لأن طبيعة القلب الإنسانى هى الضلال سريعاً عن فكر اللّه والتحوّل إلى الطقسية والروتينية الميتة، ولذا يحتاج شعب اللّه إلى مَنْ يعرف فكر اللّه الخاص لكل موقف يمر به الشعب وينقل لهم هذا الفكر المتجدد الحى.

وكثيراً ما كانت وظيفة النبى مؤلمة ومكلّفة، لأنه في أغلب الأحيان يكون فكر اللّه غير مستساغ وغير مقبول من الشعب لا سيما في أوقات الضلال والارتداد، والشعب دائماً يحب سماع الأقوال الناعمة وعندما يحمل الأنبياء فكر اللّه ودينونته على الشر لا يلقى هذا الفكر في الغالب قبولاً، وكثيراً من الأنبياء دفعوا حياتهم ثمناً لحملهم فكر اللّه لشعوبهم، وآخرون عُذِّبوا وتجرَّبوا في هزء وجلد وقيود أيضاً وحبس، بل رُجموا ونُشروا وطافوا في جلود غنم ومعزى مُعتازين مكروبين مُذلين، وهم لم يكن العالم مستحقاً لهم!! ولقد استحقت أورشليم عن جدارة لقب «قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها»!!

وقيمة النبى كانت تُقدَّر بمدى قيامه بهذه المسئوليات، فهناك الأنبياء الصغار الذين نقلوا فكر اللّه ولكننا لم نر لهم أعمالاً مؤثرة في تاريخ الشعب، وفي المقابل هناك الأنبياء الكبار الذين لم ينقلوا فقط أقوال اللّه بل استطاعوا بحياتهم أن يغيِّروا مسار الشعب رجوعاً إلى اللّه، مثل صموئيل وداود وإيليا... وقبل الكل يقف

موسى النبى النموذجى !!

لم يستطع شعب إسرائيل أن ينسى ما فعله موسى معهم، هذا الإنسان الذى اختار أن يترك كل

خزائن مصر ويربط مصيره بهذا الشعب المستعبد، موسى الذى كان يتكلم مع اللَّه وجهاً لوجه ثم ينزل إلى الشعب لكى ينقل لهم أقوال اللَّه ووصاياه، ولم ينقلها بالكلام فقط بل استطاع بآناته وحلمه ورعايته واحتماله أن ينقل صورة اللَّه للشعب، نقل لهم فكر الخلاص والتحرير في وقت عبوديتهم القاسية واستطاع أن يكون الأداة التى يحقق بها اللَّه هذا الخلاص ويجعله واقعاً ملموساً، لقد كان موسى نبياً عظيماً وكان دوره محورياً وفاصلاً في تاريخ شعب إسرائيل، لقد ارتبط تاريخ إسرائيل بموسى كما لم يرتبط بأى شخص آخر، حتى أن اللَّه خشى أن يعبدوه بعد موته فأخفى جسده عن أنظارهم!!

لقد كان موسى بحق النبى النموذجى حتى أنه قال قبل موته «يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلى، له تسمعون» (تث ١٨:١٥) أى أن كل نبى يأتى بعده كان يكتسب مصدقيته من مقدار تشبهه بموسى، ولقد اعتبر الشعب أن هذه الأقوال بمثابة نبوة عن مجىء نبى له نفس تأثير موسى في تاريخ الشعب، نبى يكون دوره محورياً وفاصلاً في حياة الشعب كما فعل موسى، ورغم تعاقب العديد من الأنبياء الكبار والصغار على إسرائيل إلا أن الشعب لم يقيِّم أحداً منهم بأنه «مثل» موسى، كان موسى هو المقياس الذى يقيسون عليه كل الأنبياء، ولذلك نراهم في أيام الرب يحاولون كثيراً مقارنته بموسى (يو ٦:٣١ ، ٩:٢٩).

ولأن أياً من أنبياء العهد القديم لم يرقَ إلى مستوى موسى اعتبروا أن هذه النبوة لم تتم بعد وظلوا ينتظرون مجىء «النبى» الذى يشبه موسى، حتى عندما جاء المعمدان سابقاً للمسيح كان السؤال الذى وُجِّه إليه:

ألنبى أنت ؟!

والحقيقة أن إسرائيل كان فعلاً في هذه الأيام على موعد مع «النبى» الموعود، ولكن ليس في شخص المعمدان بل في شخص يسوع، النبى الحقيقى الذى كان مزمعاً أن يغيِّر مسار الشعب وتاريخه جذرياً، وللحديث بقية.

قلنا إن النبى هو الشخص الذى يقترب من اللّه ليعرف فكره الخاص بشعبه في وقت محدد من التاريخ، ثم يقترب من الشعب لينقل إليهم هذا الفكر وقد يستطيع أن يقودهم أيضاً لتحقيق هذا الفكر، ولقد ظل موسى هو النموذج الكامل للنبى في عيون بنى إسرائيل والقمة التى لم يدنو منها أى نبى آخر في تاريخهم، حتى جاء يسوع إلى العالم، وكما مسحه اللّه بمسحة المُلك والكهنوت نراه أيضاً بمسحه

مسحة النبوة

«روح السيد الرب علىَّ لأن الرب مسحنى لأبشر المساكين أرسلنى لأعصب منكسرى القلب لأنادى للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالاطلاق، لأنادى بسنة مقبولة للرب» (إش ٦١:١، ٢).

في بداية خدمة الرب العلانية نراه في مجمع الناصرة يقرأ هذه الآيات ويؤكد أنها قد تمت في شخصه، إنه هو النبى الذى مُسح لكى ينقل فكر اللّه هذا إلى الشعب، ويا له من فكر جميل!! لقد كان فكر اللّه تجاه شعبه هو فكر الشفاء والعتق والقبول في وقت كان الشعب في حضيض الضعف والهوان والموت!! كان يسوع هو المسئول عن نقل هذا الفكر إلى الشعب ليس فقط بكلامه بل أيضاً بحياته التى جال فيها يصنع خيراً ويشفى جميع المتسلط عليهم إبليس.

من هذه الزاوية كان الرب «مثل» موسى، الذى أيضاً جاء إلى الشعب في وقت كانوا في حضيض العبودية والذل والهوان لينقل لهم فكر الحرية والعتق والاستقلال، واستطاع بكلماته وبحياته أن ينقلهم من كونهم عبيداً في أمة غريبة إلى شعب له أرض ووطن، كلٌ من موسى ويسوع كانت خدمته فاصلة في تاريخ شعب إسرائيل، كلٌ منهما نقل الشعب من وضع إلى وضع آخر، كلٌ منهما أنهى كياناً قديماً وأنشأ كياناً لم يكن موجوداً من قبل، كلٌ منهما نقل للشعب أقوالاً إلهية حاسمة ظلت منهجاً للسلوك عبر الأجيال، كلٌ منهما قدم إعلاناً عن اللّه لم يكن معروفاً من قبل، كل هذا جعل الروح القدس يشير إلى نبوة موسى في (تث ١٨:١٥) ويؤكد أنها قد تمت في شخص الرب له كل المجد (أع ٣:٢٢ ، ٧:٣٧) أى أن يسوع هو النبى الذى جاء إلى الشعب «مثل» موسى !!

ولكن ... !!

هنا لابد أن نقف ونستدرك ونقول إن وجه الشبه بين موسى ويسوع محصور فقط في كون خدمتهما كانت حاسمة وفاصلة في تاريخ الشعب، لكن لا يظن أحد أننا نقصد أن مضمون

خدمتهما كان متشابهاً، حاشا !! فالفرق شاسع جداً بين مضمون خدمة موسى ومضمون خدمة يسوع، بل أننا نقول إن كل ما فعله موسى في وسط الشعب لم يكن إلا ظلاً باهتاً لما كان يسوع مزمعاً أن يفعله للشعب.

أخرج موسى الشعب من تحت عبودية فرعون أما الرب فقد أتى لكى يحررنا من عبودية الخطية، وما أبعد الفرق بين العبودية الخارجية لإنسان والعبودية الداخلية للشيطان !! فتح موسى البحر أمام الشعب أما الرب فقد فتح لنا طريقاً في السماويات إلى الأقداس عينها، أطعم موسى الشعب بالمن أما الرب فقد أعطانا الخبز الحى الواهب الحياة، وهذا الخبز لم يكن سوى حياته نفسها، لقد أعطانا جسده مأكل حق ودمه مشرب حق، وما أبعد الفرق بين مَنْ يعطى خبزاً ومَنْ يعطى حياته!! بشفاعة موسى هزم الشعب أعداءه وبشفاعة الرب صار لنا السلطان أن ندوس حيات وعقارب وكل قوة العدو، لقد أشهر أمامنا ليس أجناداً بشرية بل كل الأجناد الروحية في السماويات ظافراً بهم في الصليب، أتى موسى بالناموس للشعب وبالناموس صار حكم الموت على الجميع إذ أخطأ الجميع، أما يسوع فقد أتى لنا بالنعمة والحق، النعمة التى تستطيع أن تغفر للإنسان خطاياه وتعطيه القدرة ليعيش بحسب الحق، رفع موسى حية نحاسية لكى يشفى الشعب من آلام المرض أما الرب فقد رُفع بنفسه على الصليب لكى يمنحنا حياة أبدية، بنى موسى للشعب خيمة الاجتماع التى هى ظل للأقداس السماوية أما يسوع فقد شق أمامنا الحجاب لكى ندخل معه إلى الأقداس عينها... وماذا نقول أيضاً؟! إننا لا نستطيع أبداً أن نحصر بكلماتنا الفروق الواسعة التى بين خدمة موسى وخدمة رب المجد، لأن الفرق بينهما كالفرق بين الأرض والسماء أو بين الجسد والروح أو بين الموت والحياة... وكلها فروق أبعد من قدرتنا على البيان !!

لكن كل ما نستطيع أن نقوله هو إن «النبى» العظيم قد جاء، النبى الذى حمل إلينا أكمل وأجمل إعلان عن شخص اللّه، هل قبلت هذا الإعلان في حياتك؟ وللحديث بقية.

قلنا إن الروح القدس هو روح «المسحة» أى أنه المسئول عن تكريس وتقديس وفرز الإنسان لأداء مهام محددة، ولقد رأينا هذه المسحة تتم بشكل رمزى وجزئى في العهد القديم من خلال مسحة الزيت المقدس للملوك والكهنة والأنبياء، ورأينا أيضاً كيف أن كل هذه المسحات قد اجتمعت واكتملت في شخص واحد هو شخص ربنا يسوع المسيح، حيث حلَّ الروح القدس عليه بكل ملئه جاعلاً إياه «المسيح» المعين من اللّه ملكاً وكاهناً ونبياً إلى الأبد، وهذه المسحة أبدية أى أنها لن تتكرر مع أى إنسان آخر، لأن ربنا المعبود ملأ ويملأ وسيملأ هذه المراكز بشكل كامل لا يحتاج إلى إضافة، قد يشهد العالم «مسحاء» كثيرين لكنهم مسحاء كذبة (مت ٢٤:٢٤).

والآن وقد رأينا هذه المسحة في العهد القديم ورأيناها في حياة ربنا له المجد، ماذا عنا نحن؟ ما علاقتنا نحن في العهد الجديد بروح المسحة المبارك؟ وهنا نقول: وإن كانت مسحة الروح لربنا لن تتكرر مرة أخرى مع أى إنسان آخر إلا أن أصغر مؤمن في كنيسة المسيح له نصيب في هذه المسحة، إن المؤمن لا يُمسح من الروح مسحة جديدة لأن كل المسحات اكتملت في شخص ربنا المعبود، ولكنه ينال نصيباً من مسحة ربنا نفسه، لأن مسحة الروح ليسوع كانت أيضاً:

مسحة فائضة

«هوذا ما أحسن وما أجمل أن يسكن الإخوة معاً،

مثل الدهن (المسحة) الطيب على الرأس،

النازل على اللحية، لحية هرون،

النازل إلى طرف ثيابه» (مز ١٣٣:١، ٢).

عندما يجتمع الإخوة معاً ينالون بركة ومسحة الروح، لكن هذه المسحة ليست خاصة ومستقلة لكل واحد منهم بل هى ذاتها المسحة التى انسكبت على «الرأس» بفيض حتى أنها انسابت إلى اللحية ثم إلى كل أطراف ثيابه، ومَنْ هو «الرأس» العظيم الذى انسكبت عليه المسحة بهذا الفيض؟ مَنْ هو رئيس الكهنة الحقيقى الذى كان هرون مجرد رمز له؟ إنه ربنا يسوع المسيح.

إن كل عضو في جسد المسيح له حق التمتع بذات المسحة التى انسكبت بفيض على شخص ربنا، إن لنا نصيباً في كل مسحات الروح التى تكلمنا عنها، لكن هذا النصيب لا نناله إلا من

خلال شركتنا والتصاقنا بالرأس، وكلما اقتربنا من الرأس كلما كان نصيبنا من هذه المسحات أكبر !! إننا لا نستطيع أن نأخذ مسحات من الروح بالاستقلال عن يسوع لأن الروح قد أعطى كل ملئه ليسوع ونحن نستطيع فقط أن نكون مملوئين «فيه» (كو ٢: ٩، ١٠) إنه وحده المملوء نعمة وحقاً ونحن لنا الحق أن نأخذ «من ملئه» نعمة فوق نعمة (يو ١: ١٤، ١٦).

يؤكد الكتاب هذه الحقيقة العجيبة وهى أن كل المسحات التى أخذها رب المجد يسوع قد أعطانا الحق في التمتع بها، أى أننا يمكن أن نكون:

ملوكاً وكهنة !!

يؤكد لنا الرسول بطرس أننا «كهنوت ملوكى» (١بط ٢: ٩) أى أننا نتمتع بمسحة الكهنوت والمُلك في وقت واحد، ونحن نعلم أن الجمع بين هاتين المسحتين لم يكن ممكناً في العهد القديم ولم يجتمعا إلا في شخص ربنا يسوع، أى أن مسحتنا هى من ذات طبيعة مسحة ربنا المعبود !!

ويوحنا في مقدمة سفر الرؤيا يخاطب المؤمنين البسطاء الموجودين في السبع كنائس التى في آسيا قائلاً عن شخص ربنا يسوع المسيح: «الذى أحبنا وقد غسَّلنا من خطايانا بدمه وجعلنا ملوكاً وكهنة للّه أبيه» (رؤ ١: ٥، ٦) وفي نفس السفر نسمع الكنيسة المنتصرة وهى تنشد «وجعلتنا لإلهنا ملوكاً وكهنة فسنملك على الأرض» (٥: ١٠).

.. وأنبياء أيضاً !!

يقول الرسول بولس عن شخص ربنا «الذى نزل هو الذى صعد أيضاً فوق جميع السموات لكى يملأ الكل، وهو أعطى البعض أن يكونوا ... أنبياء» (أف ٤: ١٠، ١١) هذه الكلمات تؤكد ما قلناه وهو أن الرب يسوع هو الذى يملأ الكل بمسحته الفائضة وأنه لا توجد مسحات جديدة، والرسول يحث كل المؤمنين أن ينالوا نصيباً من هذه المسحات المباركة التى في شخص المسيح وبالذات مسحة النبوة (١كو ١٤: ١)، وللحديث بقية.

قلنا إن مسحة الروح لربنا يسوع كالملك والكاهن والنبى كانت مسحة كاملة وأبدية، وهى أيضاً مسحة فائضة تنزل من الرأس إلى كل أعضاء جسده، حيث صرنا شركاء للرب في هذه المسحة حتى أن الكتاب يدعونا ملوكاً وكهنة وأنبياء، واليوم نقول إن اشتراكنا في هذه المسحة ليس من قبيل الامتياز بقدر ما هو مسئولية جسيمة.

الرأس يعمل بواسطة الجسد

إن روح المسحة الذى فاض على شخص ربنا وملأه إلى كل ملء اللّه يتحرك اليوم في الكنيسة ليعطى لأفرادها أن يشاركوا في ذات المسحة، وذلك تأكيداً لحقيقة في غاية الأهمية وهى أن عمل مسحة ربنا يتم اليوم في العالم من خلال جسده الذي هو الكنيسة، فالرسول يقول عن الكنيسة إنها ملء ـ كمال أو تتميم ـ الذى يملأ الكل في الكل (أف ١:٢٣) أى أن الكنيسة هى أذرع الرب وأرجله وعيونه التى تجول في هذا العالم، أن مسحة الرب الكاملة ووظائفه السامية تؤثر في العالم الحاضر من خلال المؤمنين الذين يحمل كل منهم جزءاً من هذه المسحة، وبدون عمل الكنيسة في إظهار وإعلان هذه المسحة تظل كمالات الرب هذه خافية عن العيون بعيدة عن متناول العالم الهالك المحتاج بشدة إلى مُلك الرب وكهنوته وتعليمه، إننا نؤكد ونكرر أن المؤمنين لا ينالون مسحات جديدة خاصة بهم بعيداً عن مسحة ربنا له المجد، لكنهم فقط يشاركون في إظهار مسحة الرب الكاملة للعالم الحاضر.

كيف نشارك في مسحة الملكوت ؟

مُلك الرب في هذا الزمان الحاضر هو مُلك روحى على قلوب المؤمنين، أما مُلكه في الزمان الآتى فهو مُلك روحى ومادى على كل الأرض، والمؤمنون يشاركون الرب مُلكه سواء الروحى حالياً أو المادى مستقبلاً (لو ١٩:١٧ ، رؤ ٥:١٠).

إننا نشارك في مُلك الرب عندما نقدمه إلى النفوس رباً ومخلّصاً، وبمساعدة هذه النفوس لكى تنخرط تحت ملكه الروحى، ونهيىء لها المعونة والظروف المواتية لكى تلتصق بهذا الرأس الملك وتخضع له.

مع كل نفس نأتى بها إلى ملكوت اللّه نحن نؤيد ملكوت ربنا ونثبّته في هذه الأرض، لقد كان

الروح في الأيام الأولى يضم إلى الكنيسة في كل يوم الذين يخلصون، وهذا العمل كان يتم من خلال خدمة التلاميذ والرسل في وسط العالم، أن الروح لا يضم الناس إلى الرب بدون عمل المؤمنين، إذ كيف يسمعون بلا كارز ؟!

هناك مَنْ يضم النفوس إلى نفسه ويضعهم تحت سلطانه، وهناك مَنْ يضم الناس إلى كنيسته ليزيد عددها وتفتخر على باقى الكنائس !! لكن المؤمن الممسوح بمسحة الملكوت يسعى ليضم النفوس إلى الرب فقط، ويعمل على أن يكون للرب السلطان الكامل على هذه النفوس دون أن يطلب لنفسه ولو قدراً ضئيلاً من طاعة هذه النفوس وخضوعها.

وكيف نشارك في الكهنوت ؟

لقد فتح رئيس كهنتنا العظيم الطريق إلى الأقداس بدم نفسه فوجد لنا فداءً أبدياً، لكن هذا الفداء الأبدى في حاجة لِمَنْ ينقله إلى الناس، العالم البائس يرزح تحت خطاياه دون أن يعلم أن له فداءً أبدياً، مَنْ يأخذ بأيدى الناس ويدخل بهم إلى ما وراء الحجاب المشقوق ليجدوا هم أيضاً رحمةً ونعمةً عوناً في حينه؟ إن الكنيسة ينبغى أن ترفع صلوات لأجل العالم حتى يعرف اللّه، ينبغى أن تقف أمام اللّه لأجل الإنسان وتقف أمام الإنسان لأجل اللّه حتى يلتقيا.

وهنا نقول إن الكنيسة لا تشفع في الناس على أساس بر فيها، كلا، بل هى تشفع على أساس شفاعة الرب الكاملة وعمله الكامل الذى عمله على الصليب، إن شفاعة الكنيسة هى على أساس ذبيحة المسيح الكاملة المُقدمة أمام اللّه مرة وإلى الأبد، إن الكنيسة ليس لها مسحة كهنوت خاصة بها بل هى فقط تعلن كهنوت المسيح وتظهره للناس ليظل معلن في كل الأجيال ويلمسه كل إنسان.

طلب الرسول من المؤمنين أن يصلوا دائماً لأجل كل إنسان وكل شيء في كل وقت، وهو نفسه كان يحنى ركبتيه دائماً بصلوات وتضرعات لأجل كل المؤمنين. إن لنا باباً مفتوحاً لا يستطيع أحد أن يغلقه ولنا فداءً أبدياً وجده لنا ربنا المعبود، وإذا لم ندخل في كل حين إلى ما وراء الحجاب لأجل أنفسنا ولأجل الآخرين فإننا نكون مجرمين في حق أنفسنا وحق الآخرين (يتبع).